ملخص مقياس المدخل الى علم الاجتماع

د. بن شارف حسين

من المعروف أن علم الاجتماع (Sociologie/Sociology/Sociologia) يدرس الظواهر المجتمعية دراسة علمية من جهة. أو من جهة أخرى، يحاول فهم الفعل الإنساني وتأويله داخل بنية مجتمعية ما، برصد مختلف الدلالات والمعاني والمقاصد التي يعبر عنها هذا الفعل أثناء عملية التفاعل والتواصل الاجتماعي. ومن ثم، يعتمد علم الاجتماع على ثلاث خطوات منهجية أساسية هي: الفهم، والتفسير، والتأويل.

ومن يتأمل علم الاجتماع بدقة، فسيجد أن هناك منهجين مهيمنين: منهجا علميا موضوعيا يتكىء على التفسير السببي والعليَ، ومنهجا ذاتيا إنشائيا تأمليا وأخلاقيا وتأويليا يقوم على الفهم. ويعني هذا أن ثنائية الذاتية والموضوعية حاضرة في مجال العلوم الإنسانية بشكل لافت للانتباه. وفي هذا الصدد، يقول إدغار موران(Edgar Morin):"هناك نمطان من السوسيولوجيا في مجال البحث الاجتماعي: سوسيولوجيا أولى يمكن نعتها بالعلمية، وسوسيولوجيا أخرى يمكن نعتها بالإنشائية.وتعتبر الأولى بمثابة طليعة السوسيولوجيا.في حين، تعتبر الثانية بمثابة المؤخرة التي لم تتحلل،بشكل مناسب، من إسار الفلسفة، ومن المقالة الأدبية، والتأمل الأخلاقي. يستعير النمط الأول من السوسيولوجيا نموذجا علميا كان بالضرورة هو نموذج الفيزياء في القرن التاسع عشر. ولهذا النموذج ملمحان، فهو آلي وحتمي في آن واحد، إذ يتعلق الأمر، في الواقع، بتحديد القوانين والقواعد التي تؤثر، تبعا لعلاقات سببية، خطية ومنتظمة، في موضوع تم عزله، وفي مثل هذا النموذج يتم استبعاد كل مايحيط بالموضوع المدروس من موضوعات أخرى. يضاف إلى ذلك أن هذا الموضوع المدروس يتم تصوره كما لو كان مستقلا استقلالا كليا عن شروط ملاحظته.ولاشك أن مثل هذا التصور يستبعد من الحقل السوسيولوجي كل إمكانية لتصور ذوات أو قوى فاعلة أو مسؤولية الذوات وحريتها.

أما في السوسيولوجيا الإنشائية، فإن ذات الباحث تحضر، بالمقابل، في موضوع الباحث، فهو ينطق، أحيانا، بضمير المتكلم، ولايواري ذاته...لقد كان مفهوم الذات غير مستساغ من قبل المعرفة العلمية ؛ لأنه كان مفهوما ميتافيزيقيا ومتعاليا...في حين، إن تقدم المعرفة البيولوجية الحديثة، يسمح، اليوم، بمنح مفهوم الذات أساسا بيولوجيا. فماذا يعني أن يكون الإنسان ذاتا، اليوم؟ إنه يعني أن يضع الإنسان نفسه في قلب عالمه...فالذات هي، بالجملة، الموجود الذي يحيل على ذاته وإلى الخارج والذي يتموضع في مركز عالمه."[1]

وبناء على ما سبق، يتأكد لنا أن ثمة طريقتين في التعامل مع الظواهر المجتمعية، إما أن نعتمد على الطريقة الوضعية التفسيرية في تبيان العلاقات الثابتة التي توجد بين الظواهر والمتغيرات، وإما أن نعتمد على طريقة الفهم لاستجلاء البعد المجتمعي، من خلال فهم أفعال الذات وتأويلها.

إذاً، هل يمكن دراسة الظواهر المجتمعية في ضوء العلوم الفيزيائية أو الطبيعية أو التجريبية على أنها أشياء ومواد وموضوعات، كما يقول الوضعيون، بما فيهم: سان سيمون(Saint- Simon)، وهربرت سبنسر(Spinser)، وإميل دوركايم(E.Durkheim)، وأوجست كونت(A.Comte) ؟ أم ندرسها في ضوء المقاربة الذاتية أو التفهمية كما يرى فلهلم ديلتاي(Dilthey) وماكس فيبر(Max Weber)؟ أم يمكن الجمع بين هذين المنهجين في دراسة علم الاجتماع كما يرى لوسيان كولدمان (Lucien Goldmann)، وأنتوني غيدنز(Giddens)، وبول ريكور(P.RICŒUR)؟ وبتعبير آخر، هل يتأسس علم الاجتماع على منهج التفسير أو منهج الفهم أم هما معا؟ أم ينبغي البحث عن بديل مغاير للعلمية أو البحث عن منهج سوسيولوجي أصيل لدراسة الإنسان بصفة عامة، والظاهرة المجتمعية بصفة خاصة؟

هذا هو الموضوع الذي سوف نتوقف عنده بالرصد والتحليل والوصف والنقد.

---

[1] -Edgar Morin***: Sociologie***, Fayard, Le Seuil, Points, Essais, 1984, pp:11-18.

- **ثانيا: أوجست كونت والتفسير الوضعي**

يعد أوجست كونت(Auguste Comte)[2] من أهم السوسيولوجيين الذين تبنوا منهج التفسير في دراسة الظواهر السوسيولوجية، وفق أربعة إجراءات أساسية هي: الملاحظة، والتجربة، والمقارنة، والمنهج التاريخي، مستلهما آليات الكيمياء والفيزيولوجيا. وفي هذا الصدد، يقول نقولا تيماشيف، في كتابه(**نظرية علم الاجتماع: طبيعتها وتطورها**):" أنكر كونت – بغض النظر- عن تعليمه الرياضي الراقي- إمكان التطابق بين المنهج الوضعي واستخدام الرياضيات والإحصاء.

أما دعوى أن المعالجة الرياضية للعلوم الاجتماعية لازمة حتى يمكن اعتبارها علوما وضعية، فتمتد جذورها إلى علماء الطبيعة.وتنبعث من تعصب مؤداه أنه لايوجد يقين خارج نطاق الرياضيات. وقد كان هذا التعصب طبيعيا ومنطقيا في الوقت الذي كان فيه كل ماهو وضعي ينتمي إلى مجال الرياضيات التطبيقية، كما أن هذه الميادين الوضعية جميعا لم تكن تنطوي على ماهو غامض وتخميني، لكن هذا التعصب أصبح غير منطقي ولا مبرر له منذ ظهور العلمين الوضعيين العظيمين: الكيمياء والفيزيولوجيا، حيث لايلعب التحليل الرياضي فيهما أي دور، ولايقلا يقينا وضبطا عن العلوم الأخرى..

فكيف نستقي المعرفة الوضعية-إذاً- في رأي كونت ؟ ذكر كونت أربعة إجراءات هي: الملاحظة، والتجربة، والمقارنة، والمنهج التاريخي، مؤكدا أن الملاحظة أو استخدام الحواس الفيزيائية يمكن تنفيذها بنجاح إذا وجهت عن طريق نظرية، وفي مجال أساليب الملاحظة لم يظهر إلا أقل تقدير للاستبطان،...وقد كان كونت مدركا أن التجربة فعليا وواقعيا تكاد تكون مستحيلة في دراسة المجتمع..كما أكد إمكانية عقد المقارنات التي تعيش معا زمنا بعينه، وبين الطبقات الاجتماعية داخل المجتمع الواحد.

أما المنهج التاريخي، فإنه عند كونت، البحث عن القوانين العامة للتغير المستمر في الفكر الإنساني، وهي نظرة تعكس الدور المهيمن للأفكار، كما تبدى ذلك في قوانين المراحل الثلاث، ولايشترك منهج كونت التاريخي إلا في القليل من نواحيه مع المناهج التي يستخدمها المؤرخون الذين يؤكدون العلاقات السببية بين الوقائع الملموسة، ويقيمون قوانين عامة كيفما اتفق..."[3]

ومن جهة أخرى، يعد كونت من رواد الوضعية (Positivisme) الذين أسسوا علم الاجتماع على أسس علمية تجريبية، اعتمادا على الملاحظة، والتجربة، والمقارنة، والتاريخ. ووضع قانون المراحل الثلاث الذي يتمثل فيما يلي:

❶ **قانون المرحلة الدينية أو اللاهوتية:** كان الإنسان، في هذه المرحلة، يفكر بطريقة خيالية، وإحيائية، وأسطورية، وخرافية، وسحرية، وغيبية، ودينية؛ وكان يفسر ظواهر الطبيعة وفق قوى خفية مصدرها الأرواح، والشياطين، والعفاريت، والآلهة، ولم يكن هناك أدنى اعتراف بالحتمية التجريبية أو العلمية، فالقانون الوحيد هو الصدفة فقط.

❷**المرحلة الميتافيزيقية:** انتقل الإنسان، في هذه المرحلة، من الميتوس والخيال إلى اللوغوس والفكر المجرد، وبدأ يهتدي بالتأمل الفلسفي، واستخدام العقل والمنطق، والاستدلال البرهاني، والحجاج الجدلي، وتواكب هذه المرحلة الفكر الفلسفي الميتافيزيقي من مرحلة الفلسفة اليونانية حتى القرن التاسع عشر؛ قرن التجريب والاختبار والوضعية. وكان الفلاسفة يرجعون الطبيعة إلى أصول ومبادىء كامنة في تلك الظواهر، كتفسير ظاهرة النمو في النبات إلى قوة النماء، وظاهرة الاحتراق بإله النار...

---

[2] – ولد السوسيولوجي الفرنسي أوجست كونت سنة 1798 ، وتوفي سنة1857م، ويعد مؤسس الوضعية العلمية، وأحد مؤسسي علم الاجتماع.

[3] – نقولا تيماشيف: ***نظرية علم الاجتماع: طبيعتها وتطورها***، ترجمة: د.محمود عودة وزملائه، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الخامسة ، 1978م، صص:51-52.

❸**المرحلة الوضعية:** في هذه المرحلة، تجاوز العقل الإنساني مرحلة الخيال والتجريد، وبلغ درجة كبيرة من الوعي العلمي، والنضج التجريبي؛ إذ أصبح التجريب أو التفسير منهج البحث العلمي الحقيقي، ثم الارتكان إلى المعرفة الحسية العيانية، وتكرار الاختبارات التجريبية، وربط المتغيرات المستقلة بالمتغيرات التابعة ربطا سببيا، وذلك في ضوء مبدإ الحتمية أو الجبرية العلمية. وتعد هذه المرحلة أفضل مرحلة عند أوجست كونت، وهي نهاية تاريخ البشرية.

وتوافق كل مرحلة من هذه المراحل تطور الإنسان من الطفولة حتى الرجولة، إذ تتوافق المرحلة اللاهوتية مع مرحلة النشأة والطفولة، وتتماثل مرحلة الميتافيزيقا مع مرحلة الشباب والمراهقة، وتتطابق مرحلة الوضعية مع مرحلة النضج والرجولة والاكتمال.

وتبقى هذه الصيرورة التاريخية صيرورة نسبية وإيديولوجية؛ لأن جميع المراحل والمجتمعات الإنسانية قد أخذت بهذه الأنماط التفكيرية الثلاثة حتى لدى الشعوب القديمة. وإذا أخذنا الفكر العربي في العصر الوسيط، فنجد اهتماما كبيرا بالفكر الوضعي التجريبي. وفي الوقت نفسه، كان الفكر اللاهوتي والميتافيزيقي سائدين ومتجاورين في المجتمع جنبا إلى جنب. ثم، لايمكن للفكر أن يتوقف في لحظة معينة، كتوقف التاريخ عند فوكوياما، أو توقف المجتمع البشري عند كارل ماركس حينما يصل إلى المرحلة الشيوعية. ومن جهة أخرى، ألفينا الوضعية العقلانية قد ساهمت في ظهور فلسفات غير وضعية وغير عقلانية، مثل: السريالية، والفرويدية، والوجودية، والتأويلية، والتحليلية المنطقية...

هذا، وقد أسس كونت الفيزياء الاجتماعية، ثم استبدلها بعلم الاجتماع(Sociologie).وبعد ذلك، أصبح هذا المصطلح شائعا في الثقافة الغربية، ثم تمثلته الثقافات الكونية الأخرى. وفي هذا، يقول كونت:" لدينا الآن فيزياء سماوية، وفيزياء أرضية ميكانيكية أو كيماوية، وفيزياء نباتية، وفيزياء حيوانية، ومازلنا في حاجة إلى نوع آخر وأخير من الفيزياء وهو الفيزياء الاجتماعية، ذلك العلم الذي يتخذ من الظواهر الاجتماعية موضوعا للدراسة باعتبار هذه الظواهر من روح الظواهر العلمية والطبيعية والكيميائية والفسيولجية نفسها من حيث كونها موضوعا للقوانين الثابتة[4]".

وقد قسم أوجست كونت علم الاجتماع إلى قسمين: قسم ستاتيكي يدرس الظواهر المجتمعية في حالتها الساكنة والثابتة والنسبية، كدراسة النظم الاجتماعية الجزئية (النظام الأسري، والنظام التربوي، والنظام السياسي، والنظام الاقتصادي...)، بالتركيز على العلاقات الترابطية والسببية بين المتغيرات ؛ وقسم ديناميكي، يدرس التغير وحركة المجتمع عبر الصيرورة الزمنية أو التصور الدياكروني والتاريخي.

علاوة على ذلك، فقد صنف كونت العلوم إلى ست مجموعات: أولها الرياضيات، ثم الفلك، والفيزياء، والكيمياء، وعلم الحياة، وعلم الاجتماع أو الفيزياء الاجتماعية. وبالتالي، فالرياضيات مفتاح العلوم جميعا، أما علم الاجتماع، فهو آخرها وتاجها جميعا، و" تلك حقيقة، إذ إن الرياضيات هي أول العلوم، فقد توصل إليها اليونانيون، ثم تلاها علم الفلك الذي ظهر على يد كوبنرك وكبلر وغاليلو، ثم الفيزياء التي ظهرت في القرن السابع عشر عند لافوازييه (Lavoisier)، ثم علم الأحياء في القرن التاسع عشر عند بيشات (Bichat) وغيره، وأخيرا علم الاجتماع في القرن التاسع عشر على يدي أوغست كونت."[5]

ويلاحظ أن أوجست كونت قد صنف العلوم من المجرد(الرياضيات) إلى المحسوس العياني (علم الاجتماع).

وعليه، فقد جاءت وضعية أوجست كونت حلا للفوضى التي كانت تعيشها فرنسا إبان انتصار الثورة الفرنسية على الإقطاع، فنتج عن ذلك مجموعة من الاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعرف المجتمع

---

[4] –أحمد الخشاب: ***التفكير الاجتماعي: دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية***، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، طبعة 1981م، ص:545.

[5] – زيدان عبد الباقي: ***التفكير الاجتماعي: نشأته وتطوره***، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، طبعة 1981م، ص:317-318.

انقساما وتفككا وتصدعا وفوضى عارمة. لذلك، حاول كونت أن يوفق بين النظام والتقدم، أو بين رغبات المجموعة المحافظة، ورغبات البورجوازية التي كانت تناصر الثورة. لذا، جاءت الوضعية للدفاع عن النظام والتقدم، وتوظيف العلم لتحقيق أمن المجتمع وسلامته. لكنه لم يوظف الفكر العلمي باعتباره نظرية لتحقيق ذلك، بل استخدمه سلاحا إيديولوجيا ليس إلا. وفي هذا، تقول وسيلة خزار:" وعلى الرغم من إيمان كونت بالمنهج الوضعي، إلا أنه لم يلتزم أساسياته، بل حوله إلى سلاح إيديولوجي، فقد حاول إقصاء الجماهير عن إدارة المجتمع وتنظيمه، وعن رسم السياسة العليا له، على أساس أن هذه الوظيفة هي وظيفة علماء الاجتماع وخبراء التنظيم؛ فهذه الصفوة هي السلطة النهائية القادرة على رسم الطريق الصحيح لتحسين حالة أبناء الطبقات الدنيا، وذهب إلى أنه ليس من حق الجماهير التساؤل عن أشياء تعلو قدراتهم ومؤهلاتهم".[6]

وهكذا، يتبين لنا بأن وضعية كونت، على الرغم من طابعها العلمي، فهي تحيز واضح إلى ماهو محافظ وساكن وثابت، مع رفض التغيير باسم الثورة، بيد أنها تقبل الإصلاح. وفي هذا السياق، يقول نبيل السمالوطي:" الوضعية في الوقت ذاته فلسفة إيجابية كما يدل على ذلك اسمها(Positivisme). والإيجاب هنا يعني قبول الأوضاع الراهنة، والوقوف منها موقف الرضا والتأييد، والعمل على الدفاع عنها ضد أي اتجاه. أي: إلى تغييرها تغييرا جذريا، فالوضعية لم تكن تعارض الإصلاح، بل التغيير، ولكن ذلك كله كان يجب أن يتم في إطار ماهو قائم وما هو موجود، محاولة كسر هذا الإطار والثورة عليه كانت مخالفة تماما لروح الفلسفة الوضعية."[7]

وخلاصة القول، اهتمت الوضعية عند أوجست كونت بدراسة الظواهر النسبية غير المطلقة، بالتوقف عند العلاقات الثابتة بين الوقائع والظواهر، في إطار ترابطها السببي، بغية استخلاص قوانينها وقواعدها النظرية والتطبيقية. ومن ثم، يمكن القول بأن أوجست كونت يعد من أهم مؤسسي علم الاجتماع الوضعي، ومن السباقين إلى الأخذ بمنهج التفسير في دراسة الظواهر المجتمعية، بتمثل منهجية الفيزياء والبيولوجيا والفيزيولوجيا والكيمياء في التعاطي مع الظواهر المادية، مع الاعتماد على مجموعة من الخطوات العلمية، مثل: الملاحظة، والتجربة، والمقارنة، والتاريخ.

- **ثالثا:إميل دوركايم وتسييد المنهج التفسيري**

يعد إميل دوركايم (Emile Durkheim)[8] من مؤسسي علم الاجتماع في الثقافة الغربية، وهو الذي دعا إلى استقلالية هذا العلم عن باقي العلوم والمعارف الأخرى. كما يظهر ذلك جليا في كتابه (**قواعد المنهج في علم الاجتماع**). ومن ثم، أرسى دوركايم علم الاجتماع على مجموعة من القواعد، مثل: ملاحظة الظواهر المجتمعية على أساس أنها أشياء أو موضوعات مادية، يمكن إخضاعها للملاحظة الخارجية. وفي هذا النطاق، يقول دروكايم: " إن الظواهر الاجتماعية تشكل أشياء، ويجب أن تدرس كأشياء..لأن كل ما يعطي لنا أو يفرض نفسه على الملاحظة يعتبر في عداد الأشياء...وإذاً، يجب عينا أن ندرس الظواهر الاجتماعية في ذاتها، في انفصال تام عن الأفراد الواعين الذين يتمثلونها فكريا، ينبغي أن ندرسها من الخارج كأشياء منفصلة عنا...إن هذه القاعدة تنطبق على الواقع الاجتماعي برمته وبدون استثناء."[9]

والقاعدة الثانية أن يتحرر عالم الاجتماع بصفة مطردة من كل فكرة سابقة، بممارسة الشك المنهجي قصد الوصول إلى اليقين كما قال ديكارت (Descartes). والقاعدة الثالثة دراسة الوقائع المجتمعية التي تشترك في

---

[6] – د.وسيلة خزار: ***الإيديولوجيا وعلم الاجتماع***، ص:133-134.

[7] – نبيل السمالوطي: ***الإيديولوجيا وأزمة علم الاجتماع المعاصر: دراسة تحليلية للمشكلات النظرية والمنهجية***،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، طبعة 1975م، ص:140.

[8] – إميل دوركايم سوسيولوجي فرنسي ، ولد سنة 1858، وتوفي سنة 1917م، وهو مؤسس علم الاجتماع.

[9] - E.Durkheim:***Les règles de la méthode sociologique***, éd Flammarion, 1988, p:103-104.

خواص معينة دراسة علمية موضوعية، بملاحظتها، وتصنيفها، وتفسيرها. وتتمثل القاعدة الرابعة في دراسة الظواهر المجتمعية التي تتميز بالتكرار، والاطراد، والعمومية، والجبرية، والإلزام... بملاحظتها خارجيا، بعيدا عن العوامل الفردية والسيكولوجية. والقاعدة الخامسة هي التفريق بين الظواهر المجتمعية السليمة وبين الظواهر المجتمعية المعتلة. والقاعدة السادسة هي تصنيف المجتمعات من حيث البنية والوظيفة.

هذا، وقد تبنى دوركايم منهج التفسير في دراسة الظواهر المجتمعية، بالتشديد على العلاقة السببية بين الظواهر المرصودة. وفي هذا، يقول دوركايم: " فكل ما يطالب به هذا العلم هو أن يعترف الناس بأن قانون السببية يصدق أيضا على الظواهر الاجتماعية.ولكن علم الاجتماع لايقرر هذا القانون على أنه ضرورة منطقية؛ بل يقرره فقط على أنه فرض تجريبي أدى إليه استقراء مشروع.فإنه لما ثبت صدق قانون السببية في نواحي الطبيعة الأخرى، وامتد سلطانه شيئا فشيئا من العالم الطبيعي الكيميائي إلى العالم البيولوجي، ومن هذا العالم الأخير إلى العالم النفسي حق لنا التسليم بأنه يصدق أيضا على العالم الاجتماعي. ويمكننا من الآن أن نضيف الحقيقة الآتية وهي: أن البحوث التي تقوم على أساس هذا المبدأ تميل بنا إلى تأكيد صحته...

إن طريقتنا طريقة موضوعية.وذلك لأنها تقوم بأسرها على أساس الفكرة القائلة بأن الظواهر الاجتماعية أشياء، ويجب أن تعالج على أنها أشياء، ولاشك في أن مذهب كل من سبنسر وأوجست كونت يقوم على أساس هذه الفكرة نفسها. وإن وجدت لديهما على صورة مختلفة بعض الشيء."[10]

إذاً، يقوم المنهج التفسيري في علم الاجتماع على إبعاد الذاتية، والتخلص من النزعة التأملية في البحث، واستعمال التجريب، وتكرار الاختبارات، والاحتكام إلى الجبرية الاجتماعية التي تستند إلى الحتمية، والعمومية، والضغط الخارجي، والعقاب المجتمعي، والابتعاد عن التصورات المسبقة، والتخلص من الأفكار الشائعة بنقدها وغربلتها علميا وموضوعيا. وفي هذا، يقول دوركايم:"إن القاعدة التي ننطلق منها لاتفترض أي تصور ميتافيزيقي، ولاتتضمن أي نظر تأملي في كنه الموجودات.إن ما تطلبه هو أن يضع عالم الاجتماع نفسه في وضع فكري شبيه بالوضع الذي يكون عليه الفيزيائيون والكيميائيون والفيزيولوجيون، حينما ينخرطون في استكشاف منطقة مجهولة عن ميدانهم العلمي.فعلى عالم الاجتماع، بدوره، وهو يحاول النفاذ إلى المجتمع أن يعي بأنه ينفذ إلى عالم مجهول.وعليه، أن يشعر بأنه، أيضا، إزاء وقائع غير منتظرة مثلما كائن عليه وقائع الحياة، قبل أن تتشكل البيولوجيا كعلم."[11]

يقوم التصور الوضعي عند دوركايم على التخلص من الخطاب التأملي الذاتي والفلسفي، وتبني مناهج العلوم الطبيعية المبنية على التجريب، والملاحظة الخارجية الدقيقة، والمقارنة العلمية (التجربة غير المباشرة)، أو الارتكان إلى الخطوات المنهجية التالية: التعريف بموضوع الدراسة، وملاحظة الظواهر بإعادة بنائها بناء علميا، وتنظيم الوقائع في ضوء استكشاف العلاقات التي تتحكم في المتغيرات المستقلة والتابعة، والالتزام بالخاصية العلمية للفرضية السوسيولوجية.

وعليه، يعتمد الموقف الوضعي على منهجية استقرائية تجريبية، وينطلق من مشكلات اجتماعية، وفرضيات علمية، والاستعانة بالتجريب التكراري والترابطي، واستثمار الإحصاء الرياضي، واستخلاص القوانين والنظريات. وفي هذا، يقول السوسيولوجي الفرنسي كلود بابييه (Jean Claude Babier):" إن السوسيولوجيا هي علم، وذلك بالتحديد، لأن من يمارسون البحث السوسيولوجي يسعون إلى القيام به بروح علمية...فالسوسيولوجيا تسعى إلى تحديد الثوابت والقواعد التي تتمفصل ضمن نظريات أو أبنية نظرية. وذلك من أجل كشف الظواهر الاجتماعية الي تقدم نفسها لعلماء الاجتماع ولمعاصريهم، بوصفها مشكلات اجتماعية.

---

[10] – إميل دوركايم: ***قواعد المنهج في علم الاجتماع***، ص:276-279.

[11] - E.Durkheim:***Les règles de la méthode sociologique***, p:79.

فالمظهر الأول للعمل الاجتماعي هو، إذاً، تعيين المشكلة أو المشكلات الاجتماعية التي يتعين دراستها...وتفسير الظواهر الاجتماعية يتم بالاعتماد على نظريات تشكل أنساقا وأبنية تقوم على قضايا منظمة بشكل عقلي. تقابل تلك الأبنية بوقائع تجريبية، وتتطور تبعا لمقابلتها بوقائع ومعطيات اختبارية أو تجريبية.كما تقوم تلك النظريات على مسلمات، أي على جملة من القضايا الأساسية غير مبرهن عليها، تعتبر بمثابة قضايا بديهية...وتحدد هذه المسلمات، بدورها، نموذجا نظريا. أي: إطارا تصوريا شاملا...

والسوسيولوجيا تقوم على ثلاث مسلمات، وتعتمد نموذجين نظريين أساسيين:

المسلمة الأولى: يشكل الإنسان نوعا وحيدا أو ثابتا لايتغير في الزمان...

المسلمة الثانية: يشكل مجموع الوقائع الاجتماعية (المجال الاجتماعي) مجالا خارجيا بالنظر إلى الفرد...

المسلمة الثالثة: ينطوي تنظيم الوقائع الاجتماعية على معنى يجري كشفه عن طريق تطبيق مناهج الفكر العلمي..."[12]

وهكذا، نجد إميل دوركايم، في كتابه (**الانتحار**)[13]، ينطلق من نتيجة أساسية، وهي أن الانتحار ليست ظاهرة نفسية أو عضوية، بل هي ظاهرة مجتمعية، مرتبطة بتقسيم العمل في المجتمع الرأسمالي الصناعي. وبالتالي، يتحدد معدل الانتحار بحسب درجة اندماج الأفراد في الجماعة، والعلاقة بينهما علاقة علية أو سببية.

- **خامسا: ماكس فيبر ومنهج الفهم**

لايمكن فهم التصور المنهجي لدى ماكس فيبر(Max Weber)[14] إلا باستعراض مجموعة من القضايا الأساسية في تصوره السوسيولوجي على الوجه الموالي:

يعد ما كس فيبر من أهم السوسيولوجيين الألمان الذين أخذوا بمنهج الفهم. وهدف السوسيولوجيا عند ماكس فيبر هو فهم الفعل الاجتماعي وتأويله، مع تفسير هذا الفعل المرصود سببيا بربطه بالآثار والنتائج. ويقصد بالفعل سلوك الفرد أو الإنسان داخل المجتمع، مهما كان ذلك السلوك ظاهرا أو مضمرا، صادرا عن إرادة حرة أو كان نتاجا لأمر خارجي[15]. ومن ثم، يتخذ هذا الفعل -أثناء التواصل والتفاعل - معنى ذاتيا لدى الآخر أو الآخرين، مادام هذا الفعل الاجتماعي مرتبطا بالذات والمقصدية. أي: الإجابة عن سؤال جوهري ألا وهو: كيف يرى الناس سلوكهم ويفسرونه؟بمعنى أن " الفعل الإنساني عند فيبر هو السلوك الذي يحمل دلالة ومعنى وهدفا. وأما الفعل المجتمعي، فهو السوك الذي يسلك تجاه الآخرين من خلال مايراه، في سلوك الآخرين، من دلالة ومعنى وهدف."[16]

وإذا كان إميل دوركايم يدرس الظواهر المجتمعية على أنها أشياء موضوعية، فإن ماكس فيبر يدرس الفعل أو السلوك الاجتماعي الذي يتحقق عبر التفاعل بين الذوات والأغيار، ويتخذ هذا الفعل معنى ذاتيا وغرضيا. ومن هنا، فقد انتقل ماكس فيبر بعلم الاجتماع من عالم الأشياء الموضوعية إلى الأفعال الإنسانية.أي: انتقل من الموضوع إلى الذات، أو من الشيء إلى الإنسان. كما تجاوز المقاربة الوضعية نحو المقاربة الهيرمونيطيقية التي

---

[12] - Jean Claude Babier: ***Initiation à la sociologie***, éd.Erasme, France, 1990, pp:14-17.

[13] -Émile Durkheim***, Le Suicide : Étude de sociologie***, Paris, Presses universitaires de France, coll. « Quadrige » (n° 19), 1981, 463 p.

[14] – ولد ماكس فيبر بألمانيا سنة 1864، وتوفي سنة 1920م، درس الفلسفة، والتاريخ، والقانون والاقتصاد. ومن أهم كتبه(الأخلاق البروتستاتية وروح الرأسمالية)(1904–1905م)، و(الاقتصاد والمجتمع) (1922م).

[15] - Catherine Colliot-Thélène: ***la sociologie de Max Weber***, La découverte, Paris, France, 2006, p:50.

[16] – د. عبد الله إبراهيم: ***الاتجاهات والمدارس في علم الاجتماع***، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية 2010م، ص:96.

تقوم على الفهم، والتفسير السببي، والتأويل الذاتي الإنساني. وبهذا، قد أحدث قطيعة إبستمولوجية، ضمن مسار علم الاجتماع، بتأسيس المدرسة التأويلية أو الهيرمونيطيقية أو سوسيولوجية الفهم (la sociologie compréhensive).

ويعني هذا - حسب نيقولا تيماشيف- " أن فيبر كان يأمل لعلم الاجتماع أن يحتفظ بميزات العلوم الروحية. فضلا عن ميزات العلوم الطبيعية. وهذه الميزات- كما يذهب فيبر- تكمن في تحقيق ضرب من الفهم، يرتكز على الحقيقة التي مؤداها أن **الكائنات البشرية تكون على وعي مباشر وإدراك تام ببناء الأفعال الإنسانية. ففي دراسات الجماعات الاجتماعية- مثلا- نستطيع أن نفهم الأفعال والمقاصد الذاتية للفاعلين الذين يمثلون أعضاء الجماعات.**

أما في العلوم الطبيعية، فإننا لانستطيع أن نفهم - بهذه الطريقة- حركات الذرات، وكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نلاحظ فقط أو نستنتج الانتظام القائم بين هذه الحركات. ولقد عبر روبرت ماكفر (Maciver) عن التعارض القائم بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية بشكل أكثر وضوحا حينما قال: إن الوقائع الاجتماعية هي في نهاية الأمر وقائع مدركة. فحينما نعرف أسباب سقوط حكومة من الحكومات، أو تحديد سعر من الأسعار، أو أسباب حدوث إضراب من الإضرابات، أو انخفاض معدل المواليد في مجتمع من المجتمعات، فإن معرفتنا هذه ستكون مختلفة- في جانب هام وحيوي- عن معرفتنا لأسباب سقوط الأمطار، أو احتفاظ القمر دائما بالمسافة التي تفصله عن الأرض، أو ظروف تجمد السوائل، أو إفادة النباتات من النيتروجين، فالوقائع التي من النوع الثاني يمكن معرفتها فقط من الخارج، أما الوقائع التي من النوع الأول، فيمكن معرفتها- إلى حد ما- من الداخل."[17]

وبناء على ما سبق، يعرف ماكس فيبر السوسيولوجيا، في كتابه(**الاقتصاد والمجتمع**) قائلا: " علم الاجتماع هو العلم الذي يعنى بفهم النشاط الاجتماعي وتأويله، وتفسير حدثه ونتيجته سببيا[18]."

إذاً، يدرس علم الاجتماع الفعل أو العمل أو النشاط الاجتماعي. في حين، يدرس عند دوركايم الظواهر المجتمعية. فهنا، البعد الإنساني الذاتي مقابل البعد الاجتماعي الموضوعي الشيئي. أي: حضور الذات في مقابل الموضوع. ويرى فيليب كابان(Philipe Cabin) وجان فرانسوا دورتيه(Jean-François Dortier) بأن السوسيولوجيا عند فيبر" هي علم بخصوص الفعل الاجتماعي. وهو يرفض الحتمية التي يمتدحها ماركس ودوركايم اللذان يحبسان الإنسان ضمن نسيج من الضغوط الاجتماعية غير الواعية، ويعتقد فيبر بأن هذه الضغوط وهذه الحتميات لاتعدو كونها نسبية. ليس المقصود قوانين مطلقة، إنما توجهات تترك على الدوام مكانا للصدفة وللقرار الفردي. وهو يعتبر أن المجتمع نتاج لفعل الأفراد الذين يتصرفون تبعا للقيم والدوافع وللحسابات العقلانية.إن توضيح الاجتماعي يعني - إذاً- التنبه إلى الطريقة التي يوجه بحسبها الناس فعلهم.هذا النهج هو نهج السوسيولوجيا التفهمية. يقول فيبر:" إن ما ندعوه سوسيولوجيا هو علم مهمته الفهم، عن طريق تأويل النشاط الاجتماعي."[19]

ويعني هذا أن المجتمع يتكون من مجموعة من الأشخاص الذين يقومون بسلوكيات أو أفعال أو أعمال، وهذه الأفعال هي جوهر علم الاجتماع.ويعني هذ أن مقاربة ماكس فيبر مقاربة فردية، تدرس سلوك الفرد داخل المجتمع، في إطاره التفاعلي.ويعني هذا أن الإنسان كائن واع، يتصرف عن وعي وهدف، ولسلوكه معنى وقصد، على عكس الأشياء التي يمكن إخضاعها للدراسة العلمية. هنا، ضرورة فهم العالم في ضوء أفعال الفرد،

---

[17] – نقولا تيماشيف: ***نظرية علم الاجتماع: طبيعتها وتطورها***، ص:261.

[18] -Max weber***: Économie et société***, Poquet, 1995, p. 28.

[19] – فيليب كابان وجان فرانسوا دورتيه: ***علم الاجتماع***، ترجمة: د.إياس حسن، دار الفرقد، دمشق، سورية، الطبعة الأولى 2010م، ص:47-48.

وفهم مقاصدها وأهدافها ونواياها ودلالاتها. ويستوجب فهم العالم دراسة سلوك الأفراد داخل المجتمع، ورصد دلالات الأفعال ومعانيها ومقصدياتها. ويقترب هذا من البعد التواصلي التفاعلي.

إذاً، فالعلوم الوضعية علوم تفسيرية خارجية، والعلوم الإنسانية، بما فيها علم الاجتماع، علوم روحية تفهمية، وعلوم تأويلية داخلية.

ويعني هذا أن علم الاجتماع هو دراسة التفاعل الاجتماعي بين الأفراد داخل المجتمع، وكيف يعطي الناس فهما ذاتيا للعالم، وكيف يوجهون سلوكهم في إطار هذا النوع من الفهم. أي: فهم نوايا هذا الفعل الاجتماعي وأسبابه.ويعني هذا أن منهجه قائم على الفهم بدل التفسير السببي أو العلي، كما نجد ذلك عند الوضعيين الذين ينتمون إلى المدرسة الدوركايمية. ويعني هذا حضور الذات المؤولة في الفعل الاجتماعي. ولايمكن فهم هذا الفعل السلوكي إلا في سياق تاريخي معين. ولايمكن فهم هذا السلوك الاجتماعي إلا ضمن ثقافة معينة مرتبطة بمجموعة من القيم المتعارف عليها.

ظهر منهج الفهم مع ماكس فيبر (Max Weber)، بعد أن بلوره فلهلم ديلثاي. ويتسم هذا التوجه المنهجي بالطابع الدلالي والتفهمي والتأويلي، والتركيز على الذات بدل الموضوع.أي: دراسة الفرد في علاقته بأعضاء الجماعة التي ينتسب إليها أو علاقاته مع المجتمع في كليته، بالتوقف عند مختلف الدلالات والمعاني والمقاصد والغايات والنوايا التي يعبر عنها هذا الفعل الإنساني والسلوكي، في علاقته بأفعال الآخرين، ضمن الكينونية المجتمعية نفسها. ومن ثم، يندرج تصور ماكس فيبر ضمن النظرة التفاعلية إلى المجتمع، فالأفراد يؤثرون في المجتمع بأفعالهم الواعية والهادفة، والمجتمع بدوره يؤثر في الأفراد.

وعليه، تسعى المقاربة التفهمية مع ماكس فيبر إلى فهم الظاهرة المجتمعية، باستخلاص دلالات أفعال الأفراد، واستكشاف معانيها ومقاصدها وغاياتها ونواياها. وفي هذا السياق، يقول بير بريشيي (Pierre Bréchier)" إن فهم الفعل الإنساني، حسب فيبر، ليس مسعى سيكولوجيا، بل هو السعي إلى **فهم السيرورة المنطقية التي تقود الفاعل الاجتماعي إلى اتخاذ قرار ما في ظرف خاص**.إذ يتعين إعادة **تشكيل المنطق العقلي للفاعل**، كما ينبغي، أيضا، فهم الجانب اللاعقلي في سلوكه، تبعا للأهداف التي يتوخاها والوسائط التي يتوسلها، من أجل التوصل إلى فهم تفسيري للفعل.[20]"

وللتوضيح أكثر، إذا كان علم الاجتماع عند إميل دوركايم يعتمد على المقاربة الوضعية التي تتعامل مع الظواهر الاجتماعية تعاملا علميا موضوعيا، على أساس أن الظواهر الاجتماعية مثل الأشياء المادية، ينبغي دراستها كالعلوم الطبيعية، بعد التخلص -أولا- من الأفكار المسبقة، وبناء الفرضيات العلمية، واللجوء إلى التجريب، وتمثل الإحصاء في تحليل الظاهرة الاجتماعية وتفسيرها، بغية إصدار القوانين والنظريات وتعميمها؛ فإن ماكس فيبر يعتمد منهجا تأويليا أو هيرمونيطيقيا يستند إلى الفهم (دراسة المعنى الداخلي)، والتأويل (إدخال الذات والمرجع على مستوى القراءة). ويعني هذا أن الفعل الاجتماعي أو الفعل الإنساني مرتبط بثقافة مجتمعية معينة. وبالتالي، لايمكن دراسة الثقافة أو الإنسان من خلال المنهج الوضعي، بل لابد من تمثل مدرسة الفهم أو الهيرمونيطيقا في ذلك. أضف إلى ذلك، أن الظاهرة الإنسانية مرتبطة بمجموعة من الأسباب، وليس بسبب واحد.لذا، يصعب تطبيق المنهج الوضعي على الظاهرة الاجتماعية التي يحضر فيها الإنسان باعتباره فاعلا ومنفعلا، وكائنا واعيا ومتغيرا.

ويستند منهج الفهم إلى ركيزتين أساسيتين هما: المثال ونسق المعاني. فالمثال إجراء عملي ينظر إلى الظاهرة المجتمعية نظرة كلية، باستخدام الحدس والإدراك المباشر. وفي المقابل، ينظر منهج التفسير إلى الظواهر في طابعها الذري، بتفتيتها إلى أجزاء وعناصر. كما أن المثال نموذج عقلي ومنطقي ومثالي، صالح لوصف الوقائع الواقعية المعطاة، بالتركيز على مكوناتها وسماتها وعناصرها، وإبراز خصائصها المشتركة والمميزة

[20] - Pierre Bréchier: ***Les grands courants de la sociologie***, PUF, 2000, pp:80.

والمترابطة فيما بينها. كما يجسد المثال الواقع المرصود، ويختزله في نموذج فكري واضح ومتسق ومنسجم. ومن ثم، فهدف الفهم هو البحث عن معنى العناصر المكونة للواقع المجتمعي، واستكشاف دلالاتها الرمزية بتأويلها وإدراكها إدراكا مباشرا.ويعني هذا أن الفهم يدرك الظواهر المجتمعية إدراكا سليما، ويحس بها إحساسا مباشرا، ويدركها دون معالجات تجريبية أو تفسيرية أو إحصائية، ودون أي استدلال أو استنتاج مباشر. وهي تظهر للعقل ظهورا بديهيا، كما لو كانت يقينا لايضيف إليه الاستدلال شيئا[21].

أما في ما يخص الركيزة الثانية، فيمكن القول بأن الفعل الاجتماعي يتضمن نسقا رمزيا، يحمل في طياته دلالات ثاوية، ندركها عن طريق الفهم والـتأويل، انطلاقا من تجاربنا وحضورنا الذاتي في هذا العالم. ومن ثم، يكون الهدف الأساس هو الوصول إلى وحدة المعنى أو الفكرة التي تتحكم في هذا الفعل، واستجلاء مختلف النوايا والمقاصد والأهداف التي كانت تتحكم في نشأة هذا الفعل أو السلوك المجتمعي.

ويمكن القول أيضا بأن منهجية ماكس فيبر تعارض منهجية ماركس؛ لأن المنهجية الفيبيرية منهجية هيرمينوطيقية تعتمد على الفهم والتأويل، والاهتمام بالفاعل الفردي (الميتودولوجيا الفردية).في حين، تعتبر سوسيولوجية ماركس بنائية، تركز على الفاعل الجماعي، وتعطي للعوامل المادية أهمية كبيرة، على أساس أن البنية التحتية (البنية الاقتصادية) هي التي تتحكم في البنية الفوقية والإيديولوجية(الفن، والدين، والسياسة). أما ماكس فيبر، فيرجع ماهو مادي إلى ماهو ديني وفوقي، كما وضح ذلك جليا في كتابه (**الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية)**[22]، حيث بين أن القيم البروتستانتية الكالفانية هي التي ساهمت في بروز الرأسمالية العقلانية. أما ماركس فقد ركز على العوامل المادية والاقتصادية في ظهور هذه الرأسمالية[23]. وإذا كان ماركس قد ثار على الدين، فإن ماكس فيبر قد دافع عن فلسفة الأديان، وخاصة البروتستانتية، دعامة العقلانية والبيروقراطية والرأسمالية والحداثة الغربية. ومن ثم، تدعو البروتستانتية إلى ابتغاء الكسب المثمر، وتنمية الرأسمال، وفق دوافع سيكولوجية ومبادىء أخلاقية، مثل: الحرص، والشح، والاستثمار، وعدم التبذير، وحب العمل، ولاسيما أن المذهب البروتستاتي الذي ظهر مع مارتن لوثر يمجد العمل باعتباره غاية للحياة وفريضة من الله." إن من لايعمل لن يأكل" كما قال القديس بولس. ولذلك، يجتهد البروتستانتي في العمل كي لاتلحقه لعنة الله. وكما تمتاز الأخلاق البروتستانتية بتمجيدها للعمل، تمتاز أيضا بدعوتها إلى التقشف والاستثمار والادخار.وتلك هي الأسس الرئيسية التي قامت عليها الرأسمالية الحديثة...

وخلاصة القول: إن فيبر يرى أن المذهب البروتستانتي، ولاسيما مذهب كالفين(Calvin)، قد خلق ما يسمى " بأخلاق المهنة" المعتمدة على نزعة صوفية تجتهد في جمع النقود واستثمارها في المشروعات التجارية والصناعية، بروح مطمئنة، تعتبر النجاح في الدنيا دليلا على رضا من الله ورضوان.[24]

وعليه، إذا كان إميل دوركايم يدرس الظواهر الاجتماعية دراسة علمية وضعية، على أساس أن هذه الظواهر تشبه الأشياء.لذا، لابد من دراستها في ضوء علوم الطبيعة، فإن ماكس فيبر الذي تأثر كثيرا بالمقاربة الهيرمونيطيقية، كان يميز بين علوم الطبيعة وعلوم الثقافة. ومادام علم الاجتماع يدرس الفعل الاجتماعي عند الأفراد والجماعات، فهو أقرب إلى علم الثقافة منه إلى علم الطبيعة. في حين، يمكن دراسة الاقتصاد السياسي دراسة علمية، بالاستفادة من علوم الطبيعة. وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على الاختلاف المنهجي في

---

[21] – د. عبد الله إبراهيم: ***الاتجاهات والمدارس في علم الاجتماع***، ص:98-99.

[22] -Max Weber***: L'Éthique protestante et l'esprit du capitalisme*** (1904-1905), traduction par Jacques Chavy, Plon, 1964 ; nouvelles traductions par Isabelle Kalinowski, Flammarion 2000; Jean-Pierre Grossein, Gallimard 2003.

[23] - Catherine Colliot-Thélène: ***la sociologie de Max Weber***, p:5.

[24] – د. مُحَمَّد عابد الجابري وآخران: **دروس الفلسفة**، دار النشر المغربية، الدارالبيضاء، المغرب، طبعة 1971م، ص:346.

دراسة العلوم الإنسانية، بالتشديد على التساؤل التالي: هل يمكن دراسة علوم الروح دراسة وضعية أم أنها علوم مستقلة بذاتها؟

وفي هذا الصدد، يقول السوسيولوجي الفرنسي جوليان فروند(1921-1983م):" يشكل النزاع المنهجي الذي قسم الجامعيين الألمان في أواخر القرن التاسع عشر خلفية التأمل الإبستمولوجي لماكس فيبر...موضوع خلاف يتعلق بوضع العلوم الإنسانية: هل ينبغي إخضاعها لعلوم الطبيعة، كما يريد أنصار الوضعية، أم بالعكس تأكيد استقلاليتها؟ بالطبع، سرعان ماتحول هذا الجدال إلى مناقشة حول تصنيف العلوم، وفي هذا الخصوص انتهى أنصار استقلالية العلوم الإنسانية بدورهم إلى التعارض.فقد اعتبر البعض، منهم ديلثي (Dilthey)، أن مبرر هذا التصنيف هو اختلاف الموضوع، على أساس التمييز بين عالم الطبيعة وعالم الفكر أو التاريخ. فالواقع يقسم إلى قطاعات مستقلة يوجه كل منها فئة خاصة من العلوم. في حين، إن البعض الآخر، ومنهم ويندلبند (Windelband) وريكيرت (Rickert)، يرفض تجزئة الواقع الذي يبقى واحدا هو ذاته دوما، ويقترح هؤلاء أساسا منطقيا لدراسة الواقع، حيث يسعى العالم إما إلى معرفة العلاقات العامة أو القوانين، وإما إلى معرفة الظاهرة بخصوصيتها؛ وهكذا يكون هناك منهجان رئيسيان، واحد يمكن تسميته بالعام، والآخر بالخاص..مهما يكن التمييز بين العام والخاص، فمن الخطأ القول: إن علوم الطبيعة تستخدم عمليا المنهج الطبيعي أو المنهج العام فقط، وأن علوم الثقافة تستخدم المنهج التاريخي أو الخاص فقط. لايتمتع أي من هذين المنهجين بامتياز أو تفوق بالنسبة إلى الآخر.وينكر فيبر، الملتزم بروح الإبستمولوجيا الكانطية، أن يكون بوسع المعرفة أن تكون صورة للواقع أو نسخة كاملة عنه، سواء بمعنى المدلول، أو بمعنى المفهوم. فالواقع لامتناه ولايفنى. وبناء عليه، فالمشكلة الأساسية لنظرية المعرفة هي مشكلة العلاقات بين القانون والتاريخ، بين المفهوم والواقع.وأيا يكن المنهج المعتمد، فإن كل واحد يقوم بعملية انتقاء من التنوع اللامحدود للواقع التجريبي."[25]

وقد أثبت رايمون أرون (R. Aron) بأن منهج ماكس فيبر السوسيولوجي يرتكز على ثلاثة مقومات أساسية هي: الفهم، والتاريخ، والثقافة.[26]

وخلاصة القول، يعتمد ماكس فيبر على منهج الفهم في دراسة السلوك الاجتماعي، ورصد أشكال الهيمنة والسلطة، ويعني هذا أنه من مؤسسي مدرسة الفهم في علم الاجتماع. ويعني هذا أن منهجية ماكس فيبر تهدف إلى فهم معنى التفاعلات السلوكية للأفراد داخل المجتمع.أي: يدرس علم الاجتماع العمل الاجتماعي (Action social) الذي يقصد به مجموعة من الوسائل التي يستند إليها المجتمع للحفاظ على اتساقه وانسجامه، وخاصة الوسائل القانونية والتنظيمية أو الأعمال التي تدفع الأفراد والجماعات التي تعيش نوعا من الهشاشة إلى العيش الكريم، والانصهار في وحدة المجتمع.

وقد تبلور هذا المنهج القائم على دراسة التفاعلات القائمة بين الأفراد في كتابه(**الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**) الذي نشره في شكل مقالين سنتي1904و1905م، حيث درس فيهما أثر العوامل الدينية في ظهور العقلانية، وكيف ساهم الإصلاح البروتستانتي في نشأة الاقتصاد الرأسمالي المادي. ومن ثم، فقد ركز ماكس فيبر على العقلانية، واعتبرها مظهرا من مظاهر الحضارة الغربية، وقد جاءت مرافقة لنشوء الرأسمالية (الاقتصاد العقلاني) والبيروقراطية (الإدارة العقلانية).

---

[25] – جوليان فروند: ***سوسيولوجيا ماكس فيبر***، ترجمة: جورج أبوصالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، بدون تاريخ، ص:21-22.

[26] -R. Aron**, *Les étapes de la pensée sociologique***, collection Tel, Gallimard, 1967, p. 504.

ومن هنا، فالدين البروتستناتي، باعتباره فعلا إيجابيا، هو المحرك الحقيقي للعقلانية والحداثة والاقتصاد الرأسمالي، وقد أهلته لقيادة حداثة كونية و تقديم نظرة عقلانية لرؤية العالم. وهذا ما يجعل ماكس فيبر من مؤسسي علم اجتماع الأديان.

النمط المثالي(**L'idéal-type**) - عند ماكس فيبر- مفهوم مجرد، أومقولة وصفية عامة تساعدنا على فهم مجموعة من الظواهر والتنظير لها، وليس من الضروري أن تكون خصائص هذا النمط متوفرة دائما، وبشكل جيد، في الظواهر الملاحظة والمدركة. ومن ثم، فهدف النمط المثال هو تكوين نموذج للظاهرة الاجتماعية أو منظور هادف لها. وبعد ذلك، استعمل المفهوم من قبل منظري المنظمات الاجتماعية للإشارة إلى الدراسات التجريبية المتعلقة بالبيروقراطية. ولايحيلنا مفهوم المثالي على الجودة والإتقان والحكم الإيجابي، بل هو دليل لبناء الفرضيات، ونموذج لفهم الظواهر المدركة في الواقع، أو تعبير عن الفكر المنظم. بمعنى أن النمط المثالي هو نتاج لعملية تركيبية لمجموعة من السمات والمواصفات لظاهرة مجتمعية ما، تكون مجردة وعامة، وتصنيفها ضمن نموذج فكري وعقلي ومنطقي متسق. وللتمثيل، حينما ندرس البيروقراطية، فإننا ندرسها في مجالات متعددة، وفي أمكنة مختلفة، لكننا نتحدث عنها بطريقة مثالية عامة، بالتركيز على خصائصها ومميزاتها المجردة والمشتركة في عمومها، لقولبتها ضمن نموذج مفهومي ووصفي ما.أضف إلى ذلك، أن النمط المثالي هو نتيجة لمجموعة من المقارنات والعمليات الوصفية لظاهرة مجتمعية ما. وبالتالي، فالمثالي لاعلاقة له بالقيمة، بل يرتبط بمنظومة من الخصائص والأوصاف والسمات المشتركة الناتجة عن محلاظة ظاهرة ما. وبتعبير آخر، يعني النمط المثالي تجريد أو تحويل الظاهرة المجتمعية المدركة والملاحظة إلى نموذج ذهني مجرد في شكل خصائص ومكونات وسمات مشتركة مجردة وعامة.أي: الانتقال من المحسوس إلى المجرد المثالي. فحينما يرصد الملاحظ ظاهرة مدركة ما، ومعزولة، فإنه يختزلها في مجموعة من المكونات والخصائص والسمات العامة والمجردة لبناء نمطها المثالي والمفهومي.

إذاً، فالأنماط السلوكية، كالسلوك العقلي، والسلوك اللاعقلي، والسلوك القيمي العقلي، والسلوك العاطفي، بمثابة " نماذج أو أفكار عقلية مثالية: هي مثالية بمعنى أنها ليست صادرة من الحياة الاجتماعية الواقعية، لابمعنى أنها صادرة من ماهيات مجردة ك" مثل" أفلاطون مثلا.إنها نماذج مثالية لكونها مشتقة أساسا من الحقيقة التاريخية، تلك الحقيقة المعقدة جدا، والتي تعتبر هذه التصنيفات السلوكية مجرد تبسيط لها. ومن هنا، يدرس علم الاجتماع عند فيبر تلك الأنماط الاجتماعية المثالية التي تحدد طبيعة تصورات الإنسان وإدراكاته ومواقفه السلوكية في المجتمع.وإذا كانت هذه الأنماط كامنة حقا في بنيات المجتمع، فهي مع ذلك، بمثابة أنماط قياسية تحدد السلوك، وتوجه العقل.

وعلى رأس هذه الأنماط المحددة للسلوك الموجهة للفعل، توجد القيم الأخلاقية والدينية، ثم العرف والعادات والقانون، بالإضافة إلى أنماط أخرى ذات طبيعة سيكولوجية كالحب والكراهية والحقد...ومهما كان الأمر، وسواء كان العنصر الموجه للسلوك هو هذا النمط أو ذاك، فإن الفعل الاجتماعي الحقيقي عند فيبر هو السلوك الهادف المرتبط بغاية معينة.أما السلوك الذي لاهدف له، فهو سلوك لاعقلي، سلوك آلي لاقيمة له من الناحية التاريخية."[27]

إذاً، فالنمط المثالي أداة تصورية وإجرائية أساسية، أو هو بمثابة منهاج أو مقياس أو نموذج تركيبي، يستخدم لوصف الوقائع المجتمعية وتقييمها. وقد ذكر ماكس فيبر خصائص متعددة للبيروقراطية كنمط مثالي،وفي تقديمه للنموذج البيروقراطي لم يصف تنظيما بعينه، ولم يستخدم مفهوم النمط المثالي بمعنى التقويم الإيجابي، فقد كان

[27] – د. مُحَمَّد عابد الجابري وآخران: **دروس الفلسفة**، ص:346.

هدفه هو قياس درجة البيروقراطية في التنظيم الواقعي[28]. ويستخدم مصطلح النمط المثالي أيضا لدراسة الدين، والأسرة، والسلطة، والنظم الاقتصادية. ويعني هذا أن النمط المثالي هو أداة للفهم وإدراك الظواهر المجتمعية إدراكا مباشرا وبدهيا وواضحا. ويرى أنتوني غيدنز(Giddens) أن " الأنماط المثالية هي نماذج مفهومية وتحليلية يمكن استخدامها لفهم العالم. وقلما توجد هذه النماذج في العالم الواقعي.وربما لاتوجد على الإطلاق. وفي أغلب الحالات تتضح جوانب أو ملامح قليلة منها في الواقع. غير أن هذه النماذج الافتراضية قد تكون مفيدة جدا، عندما نحاول فهم الأوضاع الفعلية في العالم بمقارنتها بواحد من هذه الأنماط المثالية.وفي هذا السياق، تكون الأنماط المثالية بمثابة نقطة مرجعية ثابتة.وتجدر الإشارة هنا إلى أن النمط المثالي لم يكن يعني بالنسبة إلى فيبر أن هذا التصور قد وصل حدود الكمال أو حقق الهدف المنشود.وما كان يعنيه فيبر أن النموذج يمثل صورة صافية لظاهرة ما، وقد استخدم فيبر هذه النماذج المثالية في تحليله لأشكال البيروقراطية والسوق."[29]

وللتمثيل بشكل أبسط، فشخصية " البخيل" في مسرحية موليير شخصية كاريكاتورية، مع أن احتمال أن نلتقيها في الواقع قليل، لكنها تمثل النمط الأصيل للبخل.هذه الشخصية نمط مثال للبخلاء. فالنمط المثال هو تشييد فكري لايعكس الواقع التجريبي المرصود، بل يسمح بتحليل مكوناته وخصائصه.

وعليه، يتم تحصيل النمط المثالي عند ماكس فيبر عبر الربط بين عدد من الظواهر، بتصنيفها وتنظيمها، وترتيبها، ضمن نموذج فكري منسجم ومتسق.

يستخدم النمط المثالي عند ماكس فيبر في فهم الفعل الاجتماعي وحتمياته، ويحمل هذا الفعل معنى ما، مادام موجها نحو الغير. ومن ثم، فهذه الأفعال أنواع وأنماط، فهناك أفعال غير واعية أو أقل وعيا، وأفعال اجتماعية، وأفعال أكثر وعيا، وأفعال أكثر اجتماعية على الشكل التالي:

❶**الفعل التقليدي:** ينبني هذا الفعل على العادات والقيم والأعراف والتقاليد، فالأنشطة اليومية، مثل: الأكل بشوكة أو المصافحة بالأيدي تتأتى من الفعل التقليدي.

❷ **الفعل الوجداني أو العاطفي:** هو ذلك الفعل الذي توجهه العواطف. وبالتالي، فهو فعل غير عقلاني. مثل: عقاب الأم لابنها بطريقة عاطفية وانفعالية.

❸ **الفعل الأخلاقي العقلاني**: هو فعل يتجه صوب القيم، له درجة عالية من الوعي، ويرتبط بهدف ما ضمن نظام القيم، مثل: ربان السفينة الذي يغرق مع سفينته، حين استحالة إنقاذها (فعل التضحية).

❹ **الفعل العقلاني الهادف:** يرتبط هذا الفعل بالتخطيط والترشيد العقلاني والتدبير الجيد.أي: يخطط قبل التنفيذ، ويقارن بين الوسائل المتاحة قبل العمل للوصول إلى أهدافه المرجوة، ويحلل النتائج المتوقعة الناتجة عن هذا الفعل المرتقب. مثل: الإستراتيجية العسكرية أو الاقتصادية أو الإدارية.

ويعني هذا أن فعل الفرد إما تقليدي، وإما عاطفي، وإما عقلاني. فالمستهلك يكون عقلانيا حينما يختار منتوجا لشرائه حسب دخله المادي، ووفق الأجرة التي يحصل عليها(فعل عقلاني)، وقد يكون مدفوعا بعاداته الاستهلاكية التقليدية لاختيار منتوج ما(فعل تقليدي)، أو عن طريق رغباته التي لاتقاوم (فعل وجداني). وهكذا، تتواشج الأنماط الثلاثة في النشاط الواحد للفرد (نشاط المستهلك).

و" هذه الأنماط الأربعة من السلوك ترتبط ارتباطا وظيفيا بأنماط العلاقات الاجتماعية: فالسلوك العقلي بنوعيه، هو الفعل الاجتماعي الذي يسود المجتمع عامة.أما السلوك العاطفي، فهو خاص بالجماعة. في حين، إن السلوك

---

[28] – انظر: مجموعة من المؤلفين السوسيولوجيين: ***قراءة معاصرة في نظريات علم الاجتماع***، ترجمة:د. مصطفى خلف عبد الجواد، مطبوعات مركز البحوث والراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، مصر، طبعة 2002م، ص:229.

[29] –أنتوني غدينز: ***علم الاجتماع***، ترجمة: د.فايز الصياغ، منشورات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 2005م، ص:71.

اللاعقلي يخص الإنسانية جمعاء، وقوامه جملة من العادات والتقاليد التي قد تتحول إلى سلطة اجتماعية قاهرة[30]."

ومن هنا، فسوسيولوجيا الفهم هي التي تنكب على رصد هذه الأفعال في المجتمع المدروس، بتصنيفها وتنميطها والبحث عن دلالاتها الظاهرة والخفية، مع تمجيد الفعل العقلاني الهادف والبناء.

تحيلنا أنماط الأفعال إلى نمط آخر من أشكال السلطة والهيمنة السياسية التي تتمثل في الأنواع التالية:

❶ **الهيمنة التقليدية:** تنبني على شرعية الحاكم التقليدي الذي يحترم العادات والأعراف والتقاليد أثناء ممارسة سلطته السياسية، مثل: السلطة الأبوية في المجتمعات الأبيسية، وسلطة الأسياد في المجتمع الإقطاعي.

❷ **الهيمنة الكاريزمية:** تنبني على هيبة الشخص الحاكم وصورته وصفاته الخارقة(نابليون والمسيح).

❸ **الهيمنة الشرعية القانونية:** تتمثل في مدى احترام الحاكم لسلطة القوانين، ووصوله إلى الحكم عن جدارة واستحقاق، مثل: السلطة في التنظيمات السياسية الغربية الحديثة والمعاصرة.

طبعا، يدافع ماكس فيبر عن الفعل العقلاني الهادف، والهيمنة الشرعية القانونية، وهما أساس الليبرالية البيروقراطية العاقلة والراشدة. وفي هذا الصدد، يقول ماكس فيبر:" يتطلع كل علم إلى الحقيقة.والحقيقة التي يتطلع إليها العلم تكون إما عقلانية ورياضية ومنطقية، وإما لاعقلانية شعورية.والحقيقة العقلانية، في النشاط والفعل، هي، قبل كل شيء، فكرية وواضحة وتمام الوضوح(2+2 =4). وأما الحقيقة اللاعقلانية والشعورية، في النشاط والفعل، فهي، قبل كل شيء، وجدانية...

إن الطريقة العلمية الفعالة لفهم لاعقلانية السلوك الشعورية، تقوم على اعتباراللاعقلانية مجرد انحراف عن عقلانية السلوك الخالصة.إن بناء العقلانية الخالصة يمثل نمطا (Type) يوضع بتصرف عالم الاجتماع، بهدف فهم حقيقة النشاط والفعل المجتمعي الذي تفعل فيه لاعقلانيات من كل الأنواع والأشكال.[31]"

وعليه، يرتبط الفعل العقلاني بالشرعية القانونية والنظام البيروقراطي. وهذه هي الأسس الحقيقية لليبرالية الرأسمالية المتقدمة والمزدهرة حسب ماكس فيبر.

رابعا: النظرية الماركسية

تعد النظرية الماركسية أو المادية التاريخية من أهم النظريات السوسيولوجية الكبرى إلى جانب النظرية الوضعية، والنظرية الوظيفية البنائية، والنظرية الإسلامية، والنظرية التفاعلية الرمزية، والنظرية الإثنومنهجية، والنظرية الماركسية الجديدة، ونظريات ما بعد الحداثة...إلا أن النظرية الماركسية أو النظرية المادية التاريخية قائمة على مبدإ الصراع الجدلي، والمادية التاريخية، وترجيح كفة ماهو مادي واقتصادي على ماهو فكري وثقافي.ومن ثم، تتخذ هذه النظرية توجها ماديا واقتصاديا محضا.

إذاً، ما النظرية الماركسية؟ وما سياقها التاريخي؟ وما أهم مقوماتها النظرية والفلسفية والمنهجية؟ وما أهم أمثلتها السوسيولوجية؟ وما أهم الانتقادات الموجهة إلى هذه النظرية؟ هذا ماسوف نستعرضه في المطالب التالية:

ترتبط النظرية الماركسية بالمفكر الألماني كارل ماركس (1818-1883م)، وهو فيلسوف ومؤرخ واقتصادي وثوري وعالم اجتماع. وقد ساهمت أفكاره في تطوير علم الاجتماع، وانتشار الماركسية في المجالات السياسية والاقتصادية والمجتمعية. وقد عرف بالمادية التاريخية والفلسفة الجدلية، ونقده اللذيع للرأسمالية والبورجوازية على حد سواء، ودفاعه عن الطبقة البروليتارية في وجه الطبقة المالكة لوسائل الإنتاج. لذلك، انضم إلى الجمعية العالمية للعمال. وعرف كذلك بطابعه الثوري ضمن الطبقة العمالية. وكان يقول بتغيير العالم بدل تفسيره. وقد

---

[30] – د. مُحَّد عابد الجابري وآخران: نفسه، ص:245.

[31] – Max Weber***: Economie et société***, introduction de Hinnerk Bruhns, traduction par Catherine Colliot-Thélène et Françoise Laroche, La Découverte, 1998, p:6.

تركت أفكاره بصمات واضحة على مجموعة من الكتابات التي تندرج ضمن الماركسية، سواء أكانت كلاسيكية أم معاصرة.

ظهرت الماركسية في سياق تاريخي تميز بالصراع النضالي والجدلي بين البورجوازية مالكة وسائل الإنتاج، والطبقة العمالية صاحبة القوة الإنتاجية، وكان ذلك في القرن التاسع عشر الميلادي، عصر الثورة الصناعية والعمالية. وكان سبب هذا الصراع هو الظلم الذي كانت تعانيه الطبقة البروليتارية؛ من جراء عسف الطبقة البورجوازية وبطشها وتجبرها وتعنتها، إلى جانب ماكانت تمارسه من استغلال واستيلاب ومعاملة سيئة في حق هؤلاء العمال، وطردهم من أعمالهم ووظائفهم ومناصبهم.

ومن هنا، جاءت الماركسية للتعبير عن هموم الطبقة العمالية ومحنها وإحنها، وتجسيد آمالها وطموحاتها وتطلعاتها.ومن هنا، " يمكننا القول: إن الاشتراكية، نقصد العلمية منها (الشيوعية)، قد مثلت ايديولوجية الطبقة العاملة في نضالها ضد الظلم والاستغلال الطبقي الذي ميز النظام الرأسمالي، فقد رافقت ولادتها حركة الطبقة العاملة في أوروبا (ألمانيا، وفرنسا، وإنجلترا، وبلجيكا، ...)، وكانت تمثل التعبير السياسي والنظري عن تلك الحركة، والحاملة لأهدافها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، حيث شارك مؤسسا هذه الإيديولوجيا بقوة في نضالات الطبقة العاملة، سواء من خلال تأسيس الجمعية الأممية للعمال، أم من خلال عصبة الشيوعيين في ألمانيا.

لثد دخلت الاشتراكية العلمية منذ ولادتها في صراع ضد الليبرالية باعتبارها إيديولوجية النظام الرأسمالي، التي تسوغ مشروعيته، وتبرر تناقضاته واستغلاله البشع للعمال.وفي الوقت الذي اتخذت فيه الليبرالية طابعا محافظا، اتخذت الاشتراكية العلمية طابعا نقديا راديكاليا، استهدف بالدرجة الأولى الكشف عن مساوىء النظام الرأسمالي، والدعوة إلى تجاوزه عن طريق التغيير الجذري، بحيث تتحقق في الأخير العدالة الاجتماعية، وتسمو القيم الإنسانية.[32]"

ويمكن التمييز بين ماقبل الماركسية التي كانت عبارة عن تصورات ميتافيزيقية وتأملات مثالية ساذجة وحالمة، ومرحلة الماركسية العلمية مع كارل ماركس وأنجلز، وقد تميزت هذه النظرية بطابعها العلمي واليقيني، بل إنها قادرة على الاستشراف والتنبؤ. وبالتالي، فقد كانت الماركسية نظرية سوسيولوجية ثورية وراديكالية لاتؤمن بتفسير العالم أو المحافظة عليه، بل كانت تدعو إلى تغييره جذريا، في إطار منظور مادي تاريخي وجدلي، يؤمن بالعمل والممارسة والبراكسيس، مع السعي الجاد إلى القضاء على الليبرالية والفكر البورجوازي الفردي. وأكثر من هذا، فقد وضعت الماركسية تطورا تاريخيا للبشرية التي قطعت أطوارا عدة هي: المرحلة المعاشية، والمرحلة العبودية، والمرحلة الإقطاعية، والمرحلة البورجوازية، والمرحلة الاشتراكية. وبعد ذلك، تنتقل الإنسانية إلى المرحلة الشيوعية بعد القضاء على الملكية الخاصة، وإزالة الدولة، والقضاء على الطبقات الاجتماعية، وإشاعة الأموال والنساء.

ومن هنا، فالماركسية فلسفة عمالية بروليتارية راديكالية وثورية، همها الوحيد هو الصراع الجدلي المستمر، والقضاء على البورجوازية الليبرالية، وتجاوز ماهو نظري وديني وروحي إلى ماهو مادي واقتصادي ومجتمعي، والإيمان بالتغيير الجذري الجدلي.

إذا كانت الليبرالية تقوم على أسس خمسة هي: الفرد، والعقل، والحرية، والتسامح، والعدالة، فإن الاشتراكية العلمية، مع كارل ماركس وإنجلز، قد تجاوت الاشتراكية الطوباوية بأحلامها المثالية الموغلة في التجريد، كما يبدو ذلك جليا عند سان سيمون(Saint -Simon)، وشارل فورييه (Charles Fourier)، وإتيان كابيه (Etienne Cabet).

---

[32] – وسيلة خزار: **الإيديولوجيا وعلم الاجتماع**، ص: 89-90.

ومن ثم، ترتكز الاشتراكية العلمية على مجموعة من المبادىء والمقومات الأساسية، كنقد المجتمع القائم؛ والدعوة إلى مجتمع جديد أفضل؛ والدعوة إلى الثورة ونشرها عالميا؛ وإلغاء الملكية الخاصة؛ وتحقيق المساواة بين الأفراد؛ وتدخل الدولة في تنظيم الحياة الاقتصادية؛ وسيطرة البروليتاريا (العمال والفلاحون) على مقاليد الأمور والحكم؛ وتقييد حرية الأفراد في التملك والكسب والتصرف؛ والتوسع في الخدمات الاجتماعية والصحية[33]؛ والانتقال من مجتمع اشتراكي إلى مجتمع شيوعي بدون طبقات أو دولة، يشيع فيه المال والملكية الخاصة والنساء. وفي هذا، يقول لينين:"فما بقيت الدولة لاوجود للحرية وعندما توجد الحرية تنعدم الدولة...إن الأساس الاقتصادي لاضمحلال الدولة اضمحلالا تاما هو تطور الشيوعية تطورا كبيرا، يزول معه التضاد بين العمل الفكري والعمل الجسدي، عندئذ يمكن للدولة أن تضمحل تماما عندما يعتاد الناس تماما مراعاة القواعد الأساسية للحياة في المجتمع، وعندما يصبح عملهم لدرجة تجعلهم يعملون طوعا حسب طاقتهم.[34]"

ويضيف:" نحن لسنا بخياليين، ونحن لاننكر ضرورة قمع مثل هذه المخالفات، ولكن هذا لا يحتاج إلى ماكينة خاصة للقمع؛ إلى جهاز خاص للقمع؛ فالشعب المسلح نفسه يقوم به ببساطة كما تقوم جماعة من الناس المتمدنين حتى في المجتمع الراهن بتفريق متشاجرين، أو الحيلولة دون الاعتداء على امرأة. وثانيا، نحن نعلم أن السبب الاجتماعي الأساسي للمخالفات التي تتجلى في الإخلال بقواعد الحياة في المجتمع هو استثمار الجماهير وبؤسها، عندما يزول هذا السبب الرئيسي، تأخذ المخالفات لامحالة في الاضمحلال. نحن لانعلم بأية سرعة وبأي تدرج، ولكننا نعلم أنها ستضمحل حتما، ومع هذا الاضمحلال تضمحل الدولة أيضا.[35]"

بيد أننا في حاجة ماسة، اليوم، إلى التمسك بتلابيب الدولة وتقويتها مؤسساتيا، وخاصة مع كثرة الاضطرابات والفتن والقلاقل والحروب والصراعات بين العشائر والقبائل والطوائف والإثنيات والدول... لذا، فتصور ماركس أو لينين بانتهاء الدولة مع الشيوعية مجرد خيال طوباوي حالم، لا أساس له من الصحة المنطقية أو الواقعية أو السياسية.

وعليه، ينبني التصور السوسيولوجي، عند ماركس وأنجلز معا، على المنظور المادي التاريخي والجدلي، بإقامة مجتمع اشتراكي تسيطر فيه الطبقة البروليتارية على وسائل الإنتاج، ريثما يتحقق الانتقال إلى المجتمع الشيوعي الذي تنعدم فيه الدولة والطبقات، وتشيع فيه الأموال والنساء. وينبني هذا التصور الماركسي على مراحل تاريخية متعاقبة هي: مرحلة انتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي؛ ومرحلة التكوين الاشتراكي العالمي؛ ومرحلة الشيوعية، وتحول الدول الرأسمالية إلى دول اشتراكية، ثم الانتقال إلى دول شيوعية.

بيد أن هذه المراحل والتصورات الماركسية عبارة عن أحلام يوطوبية بمفهوم كارل مانهايم(Karl Mannheim) لليوطوبيا التي تعني عدم تطابق الحالة العقلية مع الواقع. وهذا ما جعل بوتومور يقول:" إن الذي يتعذر غفرانه هو أن ماركس قد عمد إلى التضحية بالعلم الوضعي على مذبح الميتافيزيقا، وإنه لم يبد في البحث إلا ذلك الدليل الذي يؤيد الرؤية للعالم والتاريخ يبدعها خيال شعري وفلسفي لايرقى إليه شك بعدئذ.وباختصار، إنه ماركسي فج، وكان المبشر والداعي إلى عقيدته.[36]"

---

[33] – وسيلة خزار: نفسه، ص: 88-90.

[34] – فتح الرحمن أحمد مُحَّد الجعلي: **الإيمان بالله والجدل الشيوعي**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر؛ الدار السعودية للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، طبعة 1984م، ص: 94.

[35] – فتح الرحمن أحمد مُحَّد الجعلي: **الإيمان بالله والجدل الشيوعي**، ص: 93.

[36] – بوتومور: **علم الاجتماع منظور اجتماعي نقدي**، ترجمة: عادل مختار الهواري، نشر وتوزيع الشركة العامة للتجهيز والتوزيع، فاس، المغرب، ص: 85.

ويعني هذا أن الماركسية عبارة عن فكر ميتافيزيقي لايمت بصلة إلى الواقع العلمي والوضعي. وبالتالي، فالسوسيولوجيا الماركسية عبارة عن سوسيولوجيا ثورية راديكالية انتقادية وتقويضية، لايهما سوى خوض الصراع الجدلي لتقويض الفكر الليبرالي البورجوازي.

وهكذا، فقد " ارتدى الإسهام العلمي لماركس وأنجلز ثوبا إيديولوجيا راديكاليا، لأنه لم يقف عند حدود الكشف عن الطابع الاستغلالي للنظام الرأسمالي من خلال التفسير العلمي الموضوعي، ولكنه تجاوزه إلى الدعوة إلى إقامة مجتمع بديل يقوم على رؤية ايديولوجية اشتراكية. ومن هنا، صنفت أعمال ماركس وإنجلز ومن نحا نحوهما ضمن ما يسمى بعلم الاجتماع الراديكالي، وكان من الطبيعي أن يدخل هذا الأخير في صراع إيديولوجي مع علم الاجتماع الليبرالي، على غرار الصراع الإيديولوجي القائم بين الليبرالية والاشتراكية."[37]

وأكثر من هذا، يغيب الطابع العلمي في السوسيولوجيا الماركسية، وتتحول إلى عقيدة إيديولوجية ضحلة تعيق التقدم والتطور والازدهار. وفي هذا، يقول محمد محمد أمزيان:" إن هذه الدعوة العقائدية التي تميزت بها النظرية الماركسية لم تكن خاصة بها، فهي خاصية من خصائص المنهج الوضعي على العموم، وهي نفسها التي وجهت الوضعية في بحوثها.وهذه الدعوة العقائدية، نظرا لما تنطوي عليه من ضحالة فكرية تقف في وجه التفكير العلمي الصحيح، وتعرقل مسيرته نحو النمو، وتنتهي به إلى كثير من الضلال المنهجي، ويتحول العلم معها إلى الاعتقاد في العلم يتحول معه هذا الأخير إلى عقائدية ميتافيزيقية لها طابع فلسفي ينأى بالفكر العلمي عن بلوغ أهدافه، ويتيه في مثاليات يؤمن بها الباحث المتعصب لمذهبه، ويظل حبيسا للنزعات الذاتية والآراء الشخصية والافتراضات القبلية...."[38].

وهكذا، يمكن القول: إن سوسيولوجيا ماركس هي سوسيولوجيا ثورية راديكالية، تنقد الواقع الكائن، بتغييره نحو الأحسن، باستشراف واقع ممكن أفضل، يسود فيه الوعي الواقعي الحقيقي، وهو وعي الطبقات العمالية المبني على تغيير الظروف المستلبة، بالسيطرة على وسائل الإنتاج، وخلق أساليب إنتاجية جديدة.

تستند النظرية الماركسية إلى المادية الجدلية القائمة على فكرة الصراع الكمي والكيفي، والإيمان بالجدل الثلاثي: الأطروحة، ونقيض الأطروحة، والتركيب، والاعتماد على المادية التاريخية في تفسير تطور المجتمعات البشرية. وقد تأثر ماركس تأثرا كبيرا بأفكار هيجل(Hegel).إلا أن مثالية هيجل المطلقة لم تعجب كارل ماركس، مادامت تؤمن بأهمية الفكر في تغيير الواقعي بشكل ديالكتيكي. في حين، قلب ماركس هذه المعادلة الجدلية المثالية ليصبح الواقع المادي هو أساس الفكر، له الأسبقية والتأسيس والتوجيه. وفي هذا، يقول ماركس في كتابه (**رأس المال**)**:"**إن منهجي الديالكتيكي لايختلف عن المنهج الجدلي الهيجيلي من حيث الأساس وحسب، بل إنه الضد المقابل له مباشرة. فالبنسبة لهيجل: إن عملية تطور الفكر ونموه، هذه العملية التي يشخصها ويعتبرها مستقلة، ويطلق عليها اسم الفكرة، هي في نظره خالقة الواقع.فما الواقع في نظره إلا المظهر الخارجي للفكر. أما بالنسبة لي، فإن عالم الأفكار ليس إلا العالم المادي منقولا إلى الذهن البشري ومترجما فيه."[39]

ومن ثم، فالديالكتيك عند هيجل" يسير على رأسه. وتكفي إعادته على قدميه لكي نرى له هيئة معقولة تماما."[40]

---

[37] – وسيلة خزار: نفسه، ص: 90.

[38] – مُحَمَّد مُحَمَّد أمزيان: نفسه، ص: 103-104.

[39] – مُحَمَّد عابد الجابري: **من دروس الفلسفة والفكر الإسلامي**، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2010م، ص: 91.

[40] – مُحَمَّد عابد الجابري: **من دروس الفلسفة والفكر الإسلامي**،ص: 91.

وكان كارل ماركس قد كتب رسالة إلى أحد أصدقائه يقول فيها:" إن منهجي في التحليل ليس هو منهج هيجل، لأنني مادي، وهيجل مثالي. إن ديالكتيك هيجل هو الشكل الأساسي لكل ديالكتيك، ولكن بعد أن يتعرى من صورته الصوفية.وهذا بعينه ما يميز منهجي.[41]"

ومن هنا، تتجاوز مادية كارل ماركس الجدلية الماديات السابقة كالمادية الأرسطية؛ والمادية الذرية مع ديمقريطيس؛ والمادية التجريبية الإنجليزية مع جون لوك، ودافيد هيوم، واستيوارت ميل؛ والمادية الميكانيكية مع فيورباخ. وهنا، تعطى الأسبقية لما هو مادي واقتصادي على ماهو فكري وإيديولوجي. كما أن البنية التحتية ذات الطبيعة المادية هي التي تتحكم في البنية الفوقية القائمة على الفكر والدين والتصوف والأدب والفن والإيديولوجيا... وفي هذا، يقول ماركس:" ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم، بل على العكس من ذلك، إن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم"[42].

ويعني هذا أن ما هو اقتصادي ومادي ومجتمعي هو الذي يحدد فكر الناس ووعيهم ووجودهم. ولايعني هذا أن الفكر سلبي، لادور له في تغيير المجتمع أو التأثير فيه، بل يؤمن بفعاليته وخصوبته، وتأثيره في المجتمع المادي المحسوس. وفي هذا، يقول ماركس:" إن العيب الرئيس للمادية السابقة كلها، بما فيها مادية فيورباخ، هو أن الشيء، الواقع، العالم المحسوس، لاينظر إليه فيها إلا على شكل موضوع تأمل وليس كفاعلية إنسانية مشخصة، ليس كممارسة، وليس ذاتيا...إن المذهب المادي القائل إن الناس هم نتاج الظروف والتربية، وأن الناس الذين تغيروا هم بالتالي نتاج ظروف أخرى وتربية تغيرت، أن هذا المذهب المادي ينسى أن الناس هم بالضبط الذين يغيرون الظروف، وأن المربي نفسه هو في حاجة إلى أن يربى[43]."

وعليه، فثمة علاقة جدلية أو علاقة تأثر وتأثير بين الفكر والواقع، بين الوعي والمادة، بين البنى الفوقية والبنى التحتية.

أضف إلى ذلك أن المادة عند ماركس ليست ساكنة، بل متحركة وديناميكية، وفي حركة دائمة.وهذه الحركات أنواع: حركة ميكانيكية (في المكان)، وحركة فيزيائية (داخل المادة نفسها)، وحركة كيماوية (تفاعلات)، وحركة بيولوجية (حركة الأعضاء)، وحركة اجتماعية (العلاقات الاجتماعية وتطور المجتمع والتاريخ)...وتنتج هذه الحركات عن التناقضات الجدلية الداخلية والخارجية، والتناقضات الكمية والكيفية.

وعليه، فقد تبنى ماركس المادية التاريخية ذات الأساس الجدلي. وهي نظرية وفلسفة ومنهجية وممارسة علمية وعملية. ومن ثم، ترفض الماركسية الجدلية ميكانيكية فيورباخ، ومثالية هيجل، والفلسفة الوضعية التي تبوئ العلم مكانة كبرى. في حين، ترى العالم قائما على الصراع الجدلي، أساسه التناقضات الداخلية والخارجية، والتناقضات الكمية والكيفية. ويعني هذا إذا كانت الوضعية تقول بالنظام والتوازن والتكامل، فإن جدلية ماركس تقول بالصراع والتناقض الديالكتيكي. ومن ثم، فالحقائق ليست مطلقة أو نهائية، بل هي تحليل ملموس لموقف ملموس. علاوة على ذلك، فالماركسية، إلى جانب كونها فلسفة ومنهجية، فهي عمل وممارسة، أو كما يقول لينين دليل للعمل.وبهذا، يكون الباركسيس أو العمل أو الممارسة أفضل بكثير من النظريات المجردة. إذاً، فالعملي أكثر أهمية من النظري. ويؤكد ماوتسي تونغ هذه الفكرة بقوله:" إن ممارسة الإنسان هي وحدها مقياس الحقيقة. لأن المعرفة الإنسانية لاتثبت صحتها إلا حين يتوصل الإنسان إلى النتائج المقدرة سلفا بواسطة عملية الممارسة، إن عملية المعرفة تبدأ بالممارسة وتبلغ المستوى النظري بواسطة الممارسة، ومن ثمة ينبغي لها أن ترجع إلى الممارسة...إن مشكلة معرفة ما إذا كانت النظرية صحيحة، متفقة مع الحقائق الموضوعية، لاتحل تماما إلا

---

[41] – مُحَمَّد عابد الجابري: نفسه، ص: 91.

[42] – مُحَمَّد عابد الجابري: نفسه، ص: 91.

[43] – مُحَمَّد عابد الجابري: نفسه، ص: 92.

بإعادة توجيه المعرفة العقلية إلى الممارسة الاجتماعية، وتطبيق النظرية على الممارسة للتحقق مما إذا كانت تستطيع أن تحقق النتائج المرتقبة..."[44]

ومن جهة أخرى، أهم شيء في المادية التاريخية هو منهجها الدياليكتيكي الذي يتحكم في الممارسة بالتعديل والتصحيح والتغيير. ومن ثم، فقوانين الديالكتيك المادي - حسب فردريك أنجلز(**Friedrich Engels**)[45]- ثلاثة هي:

❶**قانون وحدة المتناقضات وصراعها.** بمعنى أن المتناقضات الجدلية توجد داخل الشيء الواحد، وأنه لايمكن الفصل بين الشيء وتناقضه، أو الفصل بين الأطراف المتناقضة عن بعضها البعض. كما أن أشياء العالم تتكون من المواد الجامدة والحية. وعلى الرغم من تنافر الضدين وتناقضهما فهما متلازمان جدليا، وهذا التناقض أو الصراع هو أساس التطور والنمو. ويقول لينين:" إن النمو هو صراع الأضداد". ومن ثم، فهناك نوعان من التناقضات: **تناقضات داخلية** تقع داخل الشيء الواحد، **وتناقضات خارجية** بمثابة صراع الشيء مع محيطه الخارجي. لذلك، فالتناقضات الداخلية أهم من الخارجية.وفي هذا، يقول ماوتسي تونغ:"يعتبر الديالكتيك المادي أن الأسباب الخارجية **هي شرط التبدل،** والأسباب الداخلية هي **أساس التبدل**.والأسباب الخارجية إنما تفعل فعلها عن طريق الأسباب الداخلية.فالبيضة تتبدل في درجة حرارة ملائمة فتصير كتكوتا، ولكن الحرارة لاتستطيع أن تحول الحجر إلى كتكوت، لأن أساس التبدل في الأول يختلف عنه في الثاني[46]."

كما تميز المادية الجدلية بين التناقضات الداخلية والخارجية، تميز أيضا بين التناقض الأساسية والتناقضات الثانوية.فالتناقض الأساس هو الذي يقوم بالدور الحاسم والمؤثر في الصراع. في حين، يعد دور التناقض الثانوي مكملا وهامشيا. وفي هذا الصدد، يقول ماوتسي تونغ:" ثمة تناقضات عديدة في عملية تطور شيء معقد. ومنها تناقض هو بالضرورة التناقض الرئيسي الذي يحدد وجوده وتطوره، وجود التناقضات الأخرى أو يؤثر فيها.[47]"

ويعني هذا أن التناقض الرئيسي (أ) قد يكون له دور كبير في فترة زمنية معينة إلى جانب التناقضات الثانوية (ب) و(ج). لكن مع تغير الظروف التاريخية والتطورية والنمائية، قد يصبح تناقض(ب) أكثر أهمية من تناقض (أ).

ومن ناحية أخرى، قد ينتج عن التناقضات صراع من نوع صراع الأضداد، مثل: صراع البورجوازية مع العمال ينتج عنه صراع الطبقات. وقد لاينتج عن تلك التناقضات أي صراع، مثل: التناقضات داخل الطبقة العمالية نفسها التي تختفي بالممارسة الثورية، وعملية النقد الذاتي.

❷ **قانون تحول الكم إلى كيف:** ويعني هذا أن التحولات الكمية قد تنتج عنها تحولات كيفية، مثل: غليان الماء في درجة معينة على مستوى الكم، ينتج عنه تحول كيفي بالانتقال من الماء إلى البخار. وقد يحدث التحول الكيفي إما بشكل مباغت ومفاجيء، وإما بشكل طفرة أو قفزة في شكل دفعة واحدة أو دفعات متعاقبة، وإما بشكل تدريجي. ومن ثم، فدلالة قانون تحول الكم إلى الكيف يعني" أن التزايد التدريجي في التغيرات التي تخلق الكم، والتي تكون

---

[44] – مُحَمَّد عابد الجابري: نفسه، ص: 94.

[45] – **فردريك إنجلز (1820–1895م)** فيلسوف ألماني ورجل صناعة، وضع أسس الماركسية مع صديقه كارل ماركس. نشر كتابه (**حالة الطبقة العاملة في إنجلترا**)، وأصدر مع ماركس بيانهما المعروف ببيان الحزب الشيوعي.

[46] – مُحَمَّد عابد الجابري: نفسه، ص: 95.

[47] – مُحَمَّد عابد الجابري: نفسه، ص: 95.

أول الأمر ضعيفة غير مشاهدة، تؤدي عندما تصل درجة معينة، إلى تغيرات كيفية جذرية تختفي معها الكيفية القديمة لتحل محلها كيفية جديدة، ينتج عنها بدورها تغيرات كمية.[48]"

ويعني هذا كله أن التراكم الكمي ينتج عنه تحول كيفي بصيغ متعددة ومختلفة ومتنوعة. ويقول ماركس:" إنه في مرحلة ما من مراحل التطور، يؤدي التغير البسيط في الكم الذي بلغ درجة معينة، إلى اختلافات في الكيفية.[49] "

❸ **قانون نفي النفي:** يقصد بنفي النفي نقيض الأطروحة ونفيها. بمعنى أن الشيء له أطروحة (Thèse)، ونقيض(Antithèse)، وتركيب(Synthèse). فظهور الشيء الجديد من القديم يعتبر نفيا للقديم. ولكن هذا الجديد بدوره يصبح قديما، فيأتي جديد آخر ليصبح نفيا للنفي. ولابد من الاحتفاظ، أثناء عملية نفي النفي، بالجوانب الإيجابية في المنفي، وتفادي سلبياته؛ لأن عملية نفي النفي تساعد على النمو والتقدم والازدهار، وإلا أدى ذلك إلى التكرار والوقوف عند حدود دائرة مغلقة. ومن هنا، فالتاريخ، في المنظور الجدلي، يسير في خط مستقيم بشكل تصاعدي من الأدنى إلى الأعلى، في إطار تطور جدلي ديالكتيكي، يتصارع فيه القديم والجديد، ويتم هذا التقدم التاريخي في شكل حركة لولبية، ولكن تظهر من حين لأخرى بعض الحوادث التي تتخذ طابعا تكراريا، فنقول: إن التاريخ يعيد نفسه: لكن هذا لايؤثر في مسار التاريخ وتقدمه وتطوره إلى الأمام.

وقد صاغ ستالين أربعة قوانين في كتابه (**المادية الجدلية والمادية التاريخية**) عام 1938م، حيث أضاف قانونا رابعا على الوجه التالي:

❶ قانون الترابط العام بين الظواهر؛

❷قانون الحركة والتطور في الطبيعة والمجتمع؛

❸قانون التحول من الكم إلى الكيف؛

❹قانون صراع المتناقضات.

بيد أن المفكرين الإيديولوجيين في الاتحاد السوفياتي عادوا، بعد وفاة ستالين، إلى قوانين إنجلز الثلاثة.

يتبين لنا، مما سبق ذكره، أن السوسيولوجيا الماركسية مرتبطة بكارل ماركس من جهة، وأنجلز من جهة أخرى. وتؤمن السوسيولوجيا الماركسية بأهمية العمل وأسبقيته على الفكر النظري. وبالتالي، فالممارسة العملية أو البراكسيسية أساس تطور المجتمعات. كما أن الأساس المادي والاقتصادي والمجتمعي أهم من البنى الفوقية. ومن ثم، تنبني السوسيولوجيا الماركسية على المنهج الجدلي القائم على القوانين الثلاثة، ووحدة صراع المتناقضات، وقانون الكم والكيف، وقانون نفي النفي.

وما يلاحظ على هذه السوسيولوجيا أنها رؤية ثورية تقويضية وراديكالية أساسها التغيير الجدلي انطلاقا من المادية التاريخية، لكن يغلب عليها الطابع الميتافيزيقي، والرؤية الشعرية الحالمة، والطوباوية الخيالية، وانفصال النظرية عن الواقع، وفشل التنبؤات الماركسية في تحقيق غاياتها ومراميها وأهدافها البعيدة. والدليل على ذلك أن تحولت الدول الاشتراكية إلى دول رأسمالية أو دول اقتصاد السوق بدلا من تحولها إلى دول شيوعية

[48] – مُحَمَّد عابد الجابري: نفسه، ص: 96.

[49] – مُحَمَّد عابد الجابري: نفسه، ص: 96.

تقديم عبد الرحمن بن خلدون

ولد ابن خلدون بتونس سنة 732ه \1332م، تولي مناصب سياسية هامة، ثم اعتزل السياسة ليتفرغ لكتابة مقدمته المشهورة ب"مقدمة ابن خلدون" التي هي في الأصل بمثابة تمهيد لكتابه في التاريخ الموسوم: **"كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الكبر"** المشهور بتاريخ ابن خلدون.

أهم الأفكار الاجتماعية لابن خلدون تمحورت في نقاط أساسية والمتمثلة في اكتشافه لعلم جديد ونظريته الاجتماعية والتربوية والسكانية والدولة والعصبية وغيرها من الإسهامات الأخرى ومدى فعاليتها في دراسة واقع المجتمعات العربية الإسلامية.

أكد ابن خلدون في محاضراته على أهمية الربط بين التفكير السوسيولوجي والملاحظات التاريخية. وكان مؤمنا بالدراسة العلمية للمجتمع وبالبحث الإمبريقي وبالبحث في أسباب الظواهر الاجتماعية.

النظرية الاجتماعية عند ابن خلدون

لقد جمع ابن خلدون إذن بين التفكير النظري والأسلوب العلمي مما ساعده على تدوين نظرياته ومشاهداته، كما مكنته تنقلاته و وظائفه من تعميق معارفه وتوسيع ملاحظاته ومكنه اطلاعه على الأوضاع عن كثب من تدقيق منهجه في التفكير وأسلوبه في الكتابة. ويمكن تلخيص المقدمة في مجموعه نظريات وأسس وضعها ابن خلدون لتجعل منه المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع على عكس ما يدعيه علماء الغرب أن المؤسس الحقيقي هو الفرنسي أوغست كونت ومن خلال قراءة المقدمة يمكن وضع ثلاثة مفاهيم أساسيه تؤكد ذلك وهي أن ابن خلدون في مقدمته بيّن أن المجتمعات البشرية تسير وتمضي وفق قوانين محددة وهذه القوانين تسمح بقدر من التنبؤ بالمستقبل إذا ما درست وفقهت جيدا، وأن هذا العلم "علم العمران البشري" (كما أسماه) لا يتأثر بالحوادث الفردية وإنما يتأثر بالمجتمعات ككل، وأخيرا أكّد ابن خلدون أن هذه القوانين يمكن تطبيقها على مجتمعات تعيش في أزمنة مختلفة بشرط أن تكون البنى واحدة في جميعها.

يمكن إجمال إسهاماته بتاريخ الفكر الاجتماعي بالنقاط التالية:

1) قدم دراسة تاريخية للمجتمع حيث أشار إلى أن المجتمع يمر بثلاث مراحل تاريخية متباينة وكل مرحلة حضارية متصلة بالمرحلة الحضارية التي سبقتها.

2) قسم المجتمعات إلى أنواع مختلفة وفقا لدرجة تقدمها الحضاري والاقتصادي والفني فابرز نوعين من المجتمعات البشرية، الأول هو المجتمع الريفي و سماه مجتمع البدو والذي يتميز بظاهرة العصبية، أما الثاني فهو المجتمع الحضري الذي يتميز بمستوى اقتصادي عال وبدرجة كبيرة من التقدم الثقافي والصحي والعمراني..

3) الحركة الاجتماعية في دورة مستمرة وتؤدي وظيفتها بشكل آلي ودائم

4) الاجتماع الإنساني ضروري لان الإنسان مدني بطبعه ويسير في شرح هذه القضايا على وتيرة **أرسطو والفرابي** ويؤكد على إن عدم كفاية الفرد لنفسه يدفعه إلى التعاون والاشتراك في حياة الجماعة.

5) لقد كان ابن خلدون يدرس الظواهر الاجتماعية في حالتها الساكنة والمتحركة فكان يدرس الظاهرة وأجزائها ووظائفها وما إلى ذلك من مسائل الدراسة الستاتيكية (الساكنة) ويدرس في نفس الوقت تطورها والقوانين التي تخضع لها في هذا التطور.

- اهتم ابن خلدون اهتماما ملموسا بنظم اجتماعية عديدة كالنظام السياسي والنظام الاقتصادي والعلاقات المتبادلة بينهما، كما اهتم بالمقارنة بين المجتمعات البدائية والحديثة. حيث تحليلاته جاءت حول الأبعاد الاقتصادية، الثقافية والسياسية للمجتمع من خلال مشروع تحليل علمي للمجتمعات.

منهج البحث العلمي عن بن خلدون

أما عن منهج ابن خلدون، فينطلق ابن خلدون من تناول المجتمع الإنساني من مفهومه العام وليس من مجتمع بذاته، ويتضمن هذا إيمانه بأن هناك قوانين عامة تشمل جميع المجتمعات الإنسانية ويرتكز المنهج الخلدوني على أن كل الظواهر الاجتماعية ترتبط ببعضها البعض، فكل ظاهرة لها سبب وهي في ذات الوقت سبب للظاهرة التي تليها. لذلك كان مفهوم العمران البشري عنده يشمل كل الظواهر سواء كانت سكانية أو ديموغرافية اجتماعية، سياسية، اقتصادية أو ثقافية. وقد تجسد هذا المنهج بجملة من القواعد:

1) الشك والتمحيص

2) قانون الأشياء من خلال التنقيب ثم التمحيص والتقيد العلمي فاستقراء الواقع وبالتالي كشف القوانين.

3) الواقعية الاجتماعية أي النظر إلى الحقائق الاجتماعية والوجود الاجتماعي كما هو مشخص في مواده

4) القياس والاستدلال للبرهنة على قوانينه العمرانية

5) السبر والتقسيم كمحور للكشف الاجتماعي عند ابن خلدون في المجتمع العمراني والتعميم وأصوله وكيفية الانتقال من الجزء إلى الكل أي من الحوادث المشاهدة الأخرى التي لم تشاهد.

نظرية بن خلدون حول التحول الديمغرافي

- يقدم لنا عبد الرحمن ابن خلدون المفكر الاجتماعي العربي، في غضون القرن الرابع عشر الميلادي، بعض الأفكار التي أثرت فيما بعد في تطوير الاهتمام بدراسة السكان حيث يذهب إلى أن المجتمعات تمر خلال مراحل تطورية محددة تؤثر على عدد المواليد والوفيات في كل مرحلة. إذ يشهد المجتمع في المرحلة الأولى من تطوره زيادة معدلات المواليد ونقص في معدلات الوفيات، بما يؤثر على نمو السكان ويزيد عددهم. وعندما ينتقل المجتمع إلى المرحلة الأخيرة من تطوره ، يشهد ظروفا ديموغرافية مخالفة تماما، حيث ينخفض فيها معدل الخصوبة والمواليد، ويرتفع معدل الوفيات...
- إن هذه الملاحظات أو القوانين التي طرحها ابن خلدون تشكل نظرية سكانية أو ديموغرافية لها مصداقيتها على واقع المجتمعات بصفة عامة والعربية والإسلامية بصفة خاصة لأنه تطرق إلى ما نسميه حاليا بالتحول الديموغرافي والتغير الديموغرافي ومختلف الظواهر السكانية من حجم السكان ونموهم التي أصبح يهتم بها كل من علم اجتماع السكان والديموغرافيا أو علم السكان.
- يوضح ابن خلدون تأثير كل مرحلة من مراحل تطور المجتمع على مستوى الخصوبة والوفيات حيث يقول: إن الخصوبة العالية في المرحلة الأولى عائدة إلى نشاط السكان وثقتهم ومقدرتهم العالية ، أما في المرحلة الأخيرة فتزداد نسبة الوفيات نتيجة الأوبئة والثورات والاضطرابات مما يقلل من نشاط السكان، وبالتالي ينخفض نسلهم وقدرتهم على الإنجاب والتناسل.
- لقد تحدث ابن خلدون في مقدمته الشهيرة عن القوانين التي يسير عليها التزايد في النوع الإنساني، وبذلك سبق "مالتس" في نظريته التي اشتهر بها، وهي نظرية "تزايد السكان". ويمكن القول بهذا السياق أن ابن خلدون قد ربط تطور الاقتصاد وازدهاره بكثرة عدد السكان، أما قلتهم فاعتبرها سببا مباشر يؤدي إلى تدهور الاقتصاد.
- لعل أهم أراء ابن خلدون في هذا المجال، أن المجتمعات السكانية المستقرة تحظى بارتفاع في مستوى معيشة أفرادها، وذلك لان كبر الحجم السكاني يسمح بتقسيم العمل بشكل أكثر تخصصا، ويساعد على استثمار أكثر فعالية وجدوى للموارد، ويوفر كذلك قاعدة لإقامة امن اقتصادي وسياسي واجتماعي أفضل.

التغير الاجتماعي عند ابن خلدون

- يعتقد ابن خلدون أن التغير الاجتماعي سمة أساسية مستمرة، فالجماعة الإنسانية لا تبقى على حالها و لهذا وضع نموذجا لبداية الجماعة. ويرى ابن خلدون أن البداوة تمثل نموذج الجماعة بداية، تتحول تدريجيا لتصل إلى النموذج الحضري، "فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما..." ومما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه...أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها...وقد تبين أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والأمصار وأصل لها".
- بالتالي يتحول النموذج البدوي تدريجيا بتبدل نحل أو شكل العيش ليصل أو يندمج في النهاية في النموذج الحضري. ولان مبدأ التطور يمثل قانون الطبيعة، الذي ينطبق على كل أشكال الحياة، فانه يشمل أيضا التطور الاجتماعي.
- تتضمن محاولة ابن خلدون في تناوله لعملية التطور الاجتماعي جانبين ، يشير الجانب الأول إلى أن التغير عملية طبيعية مستمرة، أما الجانب الثاني فيشير إلى التباين في عملية التطور بين الجماعات لاختلاف ظروفها، يشمل هذا التباين الاختلاف في درجة سرعة التغير من جهة واتجاهه من جهة أخرى.
- للتغير الاجتماعي لدى ابن خلدون أسباب خارجية وأخرى داخلية، تشمل الأسباب الخارجية علاقة الإنسان بالبيئة الطبيعية، مواردها، جغرافيتها والمناخ، وعلاقة الجماعة بغيرها من الجماعات سواء كان هذا بالاتصال، أو التحالف أو الاتحاد، أو التبدل في الروابط الاجتماعية وضعف العصبية التي يمكن أن تعتبر نتيجة وسبب.
- هذه النظرية أساسية ويجب ربطها بجانبين من فكره : وضع أو إقامة النماذج الاجتماعية (التنظيم الأسري، القبائل و الأمم)، التكنولوجيا، العلوم و الأديان وهذه النظرية تتعلق بالنظام الاجتماعي في كليته. فالمدينة ليست مستقلة عن البادية أو العالم البدوي. فهي تستمد منه القوة العسكرية والسلطة بمعنى الوسائل التي تسمح لها بالحفاظ على النظام الداخلي والاحتماء من التهجمات والأخطار الخارجية، حماية الطرقات وتنظيم الشبكات التجارية ذات السلم الكبير.
- يصف ابن خلدون شكل للحركة الاجتماعية أي الانتقال من حالة قديمة إلى حالة جديدة حيث يبين تجديد السكان الحضريين وتركيبة النظام. ومنه فان علم العمران البشري والاجتماع الإنساني علم شامل يتضمن بحث التشكيلات الاجتماعية وما تشمله من نشاطات وتنظيمات اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية بالإضافة إلى تطور المجتمعات وأسباب تغيرها.

نظرية الدولة و العصبية عند بن خلدون

- يخصص ابن خلدون الفصل الثالث من المقدمة للدول والملك والخلافة ومراتبها وأسباب وكيفية نشوئها وسقوطها، مؤكدا أن الدعامة الأساسية للحكم تكمن في العصبية. وقد اهتم بالعصبية اهتماما بالغا إلى درجة أنه ربط كل الأحداث الهامة والتغييرات الجذرية التي تطرأ على العمران البدوي أو العمران الحضري بوجود أو فقدان العصبية. كما أنها في رأيه المحور الأساسي في حياة الدول والممالك. كما جاء في الفصل الأول من مقدمته في أن الملك والدولة العامة إنما يحصلان بالقبيلة والعصبية.
- فالعصبية نزعة طبيعية في البشر، ذلك أنها تتولد من النسب. وإذا كانت العصبية تقوم عند ابن خلدون على أساس صلة الرحم، والنسب، وأيضا على أساس الولاء والحلف، وكان الولاء والحلف يعبران عن شكل من أشكال (التفاهم) و(الاتفاق)، فانه يمكن القول بان العصبية تقوم أيضا على أساس من التعاقد، على الأقل في جزء من مكوناتها، وهو الولاء والحلف. وفي هذا المعنى، يمكن التأكيد،على أن مفهوم (التعاقد) عند ابن خلدون، يستند على العصبية، في أساسين:
- 1) في أساس العصبية باعتبارها تعبر عن شكل من أشكال التجمع، المعبر بدوره عن ضرب من الاتفاق بين الأفراد.
- 2) في أساس الولاء والحلف، باعتبارهما يعبران عن معنى من معاني الاتفاق، أيضا.

يقرر ابن خلدون أن للدولة أعمارا طبيعية كما للأشخاص، وأن عمر الدولة لا يتعدى ثلاثة أجيال وفي نفس السياق يبين هذه الأجيال ويشرحها: "...إن عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال:

1) لأن الجيل الأول جيل البداوة الذي يتميز بالخشونة و البسالة.

2) الجيل الثاني هو جيل الحضارة الذي يتميز بالترف ومظاهر الدعة. تحول حالهم بالملك والترفة من البداوة إلى الحضارة

3) الجيل الثالث يكون هرم الدولة و تخلفها".الجيل فينسون عهد البداوة... و يفقدون حلاوة العز والعصبية...و يبلغ فيه الترف حدا يصبح الناس عالة على الدولة و يفقدون عصبيتهم أي أن الجيل الثالث هو مؤشر لزوال الدولة وانقراضها من وجهة نظر ابن خلدون.

1 : مفهوم القيمة وأنواعها ومحدداتها عند ابن خلدون

إننا نعتقد بأن تحديد قيمة سلعة ما يتوقف على كل العناصر والعوامل المباشرة وغير المباشرة المؤثرة في السلعة والمتأثرة بها. ومن هذا المنطلق الكبير سنحاول توضيح أو إثبات إلى أي مدى توصل فكر ابن خلدون معرفة هذه المحددات التي شكلت تناقضا كبيرا ومناقشة واسعة عند رواد الفكر الاقتصادي الحديث. وذلك فيما يلي :

1.1 : مفهوم القيمة عند ابن خلدون

لقد تعددت النظريات حول مفهوم القيمة، فقد كان مفهوم القيمة ومازال يشغل علماء الاقتصاد، وكلما تطور الفكر الاقتصادي كلما برزت بعض الأشياء الغائبة عن مفهوم القيمة، وإذا كان ابن خلدون قد عاش في بيئة وزمن يبعد بأكثر من أربعة قرون عن هذه المناقشات فكيف كان مفهومه للقيمة ؟

يقول ابن خلدون : " أعلم أن الكسب إنما يكون بالسعي في والاقتناء والقصد إلى التحصيل، فلا بد في الـــرزق من سعي وعمل، ولو في تناوله وابتغائه من وجوهه " (2 : 381)

ويقول أيضا : " إن المفادات والمكتسبات، كلها أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية " (2: 382) ويعني هنا بالمفادات والمكتسبات السلع والخدمات .

وباستقراء نصي الفقرتين المذكورتين يبين بكل وضوح أن ابن خلدون يعيد قيم المنتجات من سلع وخدمات إلى العمل البشري، ويقر بأن العنصر الأساسي لتحقيق المعاش هو العمل، وبهذا يكون ابن خلدون قد أضفى أهميـــة كبيرة على العمل البشري، حيث جعل مفهوم قيم الأشياء من سلع وخدمات لا تتم إلا بتدخله .

ويظهر هذا بكل وضوح في عبارته التالية : " ولو في تناوله وابتغائه من وجوهه " الطبيعية ويعني هذا أن الأشياء كلها لا تأخذ قيمتها إلا بتدخل العمل البشري. فقد يبقى كثيرا منها ينفع الإنسان بدون قيمة إذا لم يتدخل العمل البشري، ومثال ذلك العسل في أشهادة، والماء سواء كان جاريا فوق الأرض أو بباطنها ،و كـــل الفواكه البرية، و كل النباتات الطبية و غيرها مما اكتشفت قيمته بالعمل و مما هو غائب ستكتشف قيمته لاحقا ولكن بتدخل العمل .

مما سبق ذكره يتبين أن مفهوم القيمة عند ابن خلدون تتركز بشكل أساسي عن العمل، وبذلك أبرز أهمية عنصر العمل وصوره في تحديد قيم الأشياء المنتجة، وفي سابقة يقرر ابن خلدون بأن المكاسب هي قيم الأعمـــال، وأن الأعمال هي سبب الكسب، وكثرة الأعمال هي السبيل إلى الثروة، وسنعود إلى هذا فيما بعد .

يقول إبن خلدون : " إن المكاسب إنما هي قيم الأعمال، فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمها " (2: 365).

ومن هنا تبرز أهمية العمل كوسيلة منتجة حقيقية وطبيعية عند ابن خلدون، وهو إذ يجعل العمل هو العنصر الرئيسي للقيمة، ينتبه في هذا الوقت المبكر أربعة قرون قبل ظهور علم الإقتصاد بمفهومه الحديث أن هناك سلعا ذات قيمة للبشر ولكن لم يتدخل فيها العمل البشري، هذه السلع هي المسماة في الإقتصاد السياسي بالسلع الحرة، ولهذا تجده في عبارته الشهيرة المدللة على مفهوم القيمة عنده فيقول : " إن المفادات أو المكتسبات كلها أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية " (2: 382)فهو يستعمل أداة التخيير "أو" وبهذا لا يجزم بأن كل السلع التي لها قيمة استعمالية إنما هي نتيجة الأعمال البشرية، غير أن استعماله لكلمة " أكثرها" يبين أن ابن خلدون أدرك بأن هذه السلع التي لها قيمة استعمالية دون أن يلمسها العمل البشري هي قليلة مثل أشعة الشمس، والهواء الذي نتنفسه، والأشعة غير المرئية التي تحمي الإنسان من كثير من الأمراض، وغيرها من الغازات والأغلفة الكونية التي تحفظ التوازن البيئي الذي سهل العيش على هذه الأرض وجعل الحياة عليها ممكنة إن إكتشاف ابن خلدون الذي يتعرف فيها على السلع الحرة وهي قليلة كما عرفنا يعززه ويدعمـــه ملاحظتـــه الدقيقة لنوع من الأشياء التي لا دخل للإنسان في وجودها، ولكن لا يمكن الانتفاع بهـــا إلا بتـــدخل العمـــل البشري وفي هذا يقول ابن خلدون :" وقد يحصل له ذلك بغير سعي كالمطر المصلح للزراعة وأمثاله، إلا أنها إنما تكون معينة ولابد من سعيه معها فتكون تلك المكاسب معاشا " (2: 679).

ويتبين من هذا القول أن ابن خلدون يعتبر السلع الحرة ليست من عمل الإنسان، غير أنها تعتبر مساعدة له على إظهار القيم الاستعمالية للأشياء التي تدخل في مساعدتها، فإذا لم تقترن بعمل الإنسان الذي يجعلها مفيدة فإنها تبقى قليلة الجدوى إن لم نقل معدومة في خلق قيم يستفاد بها.

إن هذا المفهوم لقيمة الأشياء التي لا يتدخل فيها العمل الإنساني بشكل مباشر لإبراز منافعها والاستفادة من قيمها الاستعمالية، أو تلك التي تكون معينة كما يقول ابن خلدون ناقشه بعد أربعة قرون رواد المدرسة الكلاسيكية والإشتراكية وغيرهم وذلك في مجال تفرقتهم بين القيم التي تنتج عن العمل البشري ومن القيم التي تأتي من الطبيعة، وقد أطلقوا على هذه الأخيرة تسمية " السلع الحرة " .

إن الحاجات الاقتصادية عند ابن خلدون تستمد قيمتها بشكل رئيسي من مدى ما بذل فيها من جهد، ومن عمل.

يقول ابن خلدون : " لا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول (2: 365) ويعتبر ابن خلدون بهذا سابقا النظريات القيمة التي تركز على العمل لمئات السنين، بالأخص نظريات رواد المدرسة الكلاسيكية وأولهم السير وليام بيتي وسميث وريكادوا وغيرهم ممن جاؤوا بعدهم .

إن ابن خلدون لا يقف عند هذا المفهوم للقيمة، بل يذهب إلى أن مصدر الكسب (الثروة) إنما أساسه العمل الإنساني، ويقرر بأن زيادة الأعمال البشرية سوف تزيد من قيمته مما يزيد من الكسب (الثروة) .

يقول ابن خلدون : " إن المكاسب إنما هي قيم الأعمال، فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمتها بينهم فكثرت مكاسبهم، فتنفق أسواق الأعمال والصنائع ويكثر دخل المصدر وخرجه، ويحصل اليسار لمنتحلي ذلك من قبل أعمالهم، ومتى زاد العمران زادت الأعمال ثانية ثم زاد الترف تبعا للكسب، وزادت عوائده وحاجاته، واستنبطت الصنائع فزادت قيمتها وتضاعف الكسب في المدينة لذلك ثانية، ونفقت الأعمال بها أكثر من الأول وكذا في الزيادة الثانية والثالثة ". (2 : 344)

هكذا يتضح بأن مفهوم القيمة عند ابن خلدون أساسه العمل الإنساني وهو بذلك يؤدي إلى ثراء الأمم وغناها، فتقدم الدول في نظره هو ما تراكم من قيم الأعمال الإنسانية، وهو ليس بالضرورة ما قد يتواجد فيها من المعادن الثمينة مثل الذهب والفضة، وبذلك يكون قد سبق آدم سميث في الإقرار بأن ثروة الأمم إنما أساسها قيم الأعمال البشرية .

2.1 : أنواع القيمة عند ابن خلدون

إذا كان موضوع القيمة بصفة عامة يحتل مكانة بارزة في الإقتصاد السياسي فإن البحث في أنواع القيمة لا يقل أهمية عن ذلك، لأن معرفة هذه الأنواع من شأنه أن يسهل فهم القيمة، وإذا كان هذا التقسيم قد طرح كثيرا من المناقشات بين المفكرين الغربيين في بداية القرن السادس عشر التجاريين منهم والطبيعيين فابن خلدون في القرن الرابع عشر قد استطاع أن يتنبه إلى هذه المسألة الاقتصادية الهامة، فاستطاع أن يفرق بين نوعين من القيم تميز الطبيعة المزدوجة للبضاعة والتي تترجم في خاصيتين هما القيمة الاستعمالية والقيمة التبادلية، وسنتناولهما فيما يلي :

1 . 2 . 1: القيمة الاستعمالية عند ابن خلدون

يقول ابن خلدون : " ثم إن الحاصل أو المقتنى إن عادت منفعتة على العبد، وحصلت له ثمرته من إنفاقه في مصالحه وحاجاته سمي رزقا " (2: 360-361) .

ويلاحظ هنا أن مصطلح الرزق عند ابن خلدون يذهب إلى ما اصطلح عليه في أدبيات الاقتصادية " بالقيمة الاستعمالية" ويوضح ابن خلدون شروط القيمة الاستعمالية بشكل منفرد النظير، ويمكن إيجاز هذه الشروط في النقاط التالية :

أ- الحصول الفعلي على السلعة واقتنائها :

ويتبين من هذا الشرط أن السلعة إذا لم تكن حاصلة بالفعل عند الفرد، وقادر على التصرف فيها لا يمكن أن تشكل قيمة استعمالية، فمجرد الرغبة في الشيء والدافع إلى إقتنائه لا يمثل بأي حال من الأحوال قيمة إستعمالية إلا إذا تم التحصيل الفعلي وحوزة الطلب المرغوب فيه.

ب- حصول المنفعة من الشئ المقتني :

إن الشرط الأول لا يكفي لوحده لتحقيق قيمة الإستعمال، فقد نحصل على السلعة ونقتنيها، ولكن قد لا يكون الغرض منه هو الإستعمال الشخصي المباشر، ولذلك يضع ابن خلدون شرطا مكملا وضروريا بالنسبة للشرط الأول وهو حصول المنفعة وعودها على العبد أي إستعمالها الفعلي من طرف المقتني .

ج- قدرة المنفعة على اشباع حاجة وتحقيق مصلحة خاصة

ويعتبر هذا الشرط أساسي للقيمة الاستعمالية للسلعة أو الخدمة، والذي يدين بأن ذلك الشئ الذي يحصل عليه الإنسان فعليا ويحمل منفعة، قادر أن يشبع حاجة من حاجات مقتنية ويقدم له مصلحة خاصة تكون بحسب الشئ المقتني .

إن توفر هذه الشروط الثلاثة يجعل من نظرة ابن خلدون للقيمة الاستعمالية نظرة مستوفية .

ومما سبق يتبين بأن لفظة " الرزق" المرادفة للقيمة الاستعمالية في الأدبيات الاقتصادية المعاصرة، هو ما يحصل عليه الفرد ويخصصه لإشباع حاجاته المباشرة، وتحقيق مصلحته الخاصة .

إن هذه القيمة، قيمة إستعمال الشيء لا تتأتى إلا بالعمل الإنساني ففي رأي ابن خلدون وبالرغم بأن هذه السلعة أو الخدمة موجهة للإستعمال المباشر إلا أن العمل الإنساني لا بد أن يلامسها وإلا اعتبرت في نظرته من الأمور غير الطبيعية .

يقول ابن خلدون : " فلا بد في الرزق من سعي وعمل " (2: 381) ، وبناء على هذا فإن عنصر العمل يدخل بشكل رئيسي في تحديد القيمة مهما كان نوعها .

1 . 2 . 2 : القيمة التبادلية عند ابن خلدون

يقول ابن خلدون : " ثم إن الحاصل أو المقتنى إن عادت منفعته على العبد،وحصلت له ثمرته من إنفاقه في مصالحه وحاجاته سمي رزقا ... وإن لم ينتفع به في شئ من مصالحه وحاجاته فلا يسمى كسبا " (2: 381)

ويلاحظ أن النوع الثاني من الأشياء المقتناة التي ذكرها ابن خلدون في الجزء الثاني من المقولة السابقة " وإن لم يكن ...) لا يكون القصد من إقتنائها هو الإستعمال الشخصي المباشر، وإنما يقصد مبادلتها بغيرها فإنها تدخل في دائرة السلع ذات قيم الإستبدال (2 : 381)

ويمكن إيجاز شروط القيمة الإستبدالية عند ابن خلدون فيما يلي :

أ – الحصول الفعلي على السلعة واقتنائها، وقد تم شرحه في القيمة الاستعمالية .

ب- عدم الانتفاع به في مصالحه وحاجاته الخاصة .

ويعني هذا الشرط أن هذه الأشياء المقتناة من سلع وخدمات لا توجه إلى الإستهلاك المباشر من طرف مالكها، ولا تتضمن المواد التي تستعمل للإشباع الخاص .

Activer W
Accédez aux
l'ordinateur p

ج – الإمتلاك سعي الفرد وقدرته

يذهب ابن خلدون في هذا الشرط اعتبار الأشياء ذات القيمة التبادلية لا بد من إمتلاكها عن طريق السعي والقدرة، وهو بذلك يؤكد مرة أخرى على أهمية العمل الإنساني في تشكيل قيم الأشياء مهما كان نوعها، وهو يعارض إدخال الدوافع الأخلاقية في القيمة، ويعارض مقولة الحصول على القيم الاستعمالية بالعدل (1: 70)

يقول ابن خلدون : " إنما الله يرزق الغاصب والظالم والمؤمن والكافر " (2: 365)

وهنا ينفي الحصول على منافع القيم بالطرق التي لا يدخل فيها العمل الإنساني .

ومما سبق التطرق إليه إلى أنواع القيمة عند ابن خلدون يلاحظ كل عارف ودارس للإقتصاد السياسي بشكل عام وموضوع القيمة بشكل خاص أن ابن خلدون في هذا الوقت المتقدم من الزمن، زمن علم الإقتصاد الحديث الذي عرف على رواد المدرسة الكلاسيكية ومن جاء بعدهم قد توصل وبشكل علمي ودقيق إلى المعرفة الدقيقة لقسمي القيمة قيمة الإستعمال و قيمة الإستبدال .

و إذا كانت قيمة الإستعمال عند إبن خلدون لا تتحقق إلابشروطها الثلاثة المذكورة سابقا وتنتهي بالإستعمال المباشر وحصول المنفعة والمصلحة، فإن قيمة الإستبدال تذهب إلى أبعد من هذا، حيث يكون مكانها الطبيعي هو السوق، وتأخذ قيمتها عند التبادل .

وقد استعمل ابن خلدون عدة مصطلحات تستعمل لتعيين التبادل، ومن أهمها البيع، المعاملة،التجارة، غير أنه استعمل بصفة أساسية للتدليل على قيمة الإستبدال " القيمة التبادلية" مصطلح العوض أو الأعواض .

يقول ابن خلدون : " ... ما تحصل عليه يد هذا إمتنع عن الآخر إلا بعوض" (2: 365) أي أن ما يمتلكه أي فرد لا ينتقل إلى أي فرد آخر إلا بمبادلته بما لدى الطرف الآخر أي تعويضه بما يعادله من سلع وخدمات تساوي قيمتها قيمة الشئ المبادل أو المعوض .

ويرجع ابن خلدون زيادة القيم التبادلية إلى التقسيم الإجتماعي للعمل، لأن الفرد لا يستطيع أن يلبي حاجاته بنفسه، فلا بد من تبادل للسلع والخدمات بين الأفراد، وهذا التبادل في رأي ابن خلدون يجب أن يتم على أساس من التكافؤمن ناحية الجهد والعمل المبذول، وهذه القيمة التبادلية للسلع، والتي تتجدد بشكل أساسي في السوق، بحيث يمكن مبادلتها بشئ غير مملوك، فهي إذن تعبر عن قيمة موضوعية تتوقف على اعتبارات خاصة بالسلعة، بصرف النظر عن قيمتها في نظر شخص معين .

ونلاحظ أن ما توصل إليه ابن خلدون في معرفته الدقيقة والموضوعية لأنواع القيمة يجعله من بين أهم المفكرين الذين تناولوا هذا التقسيم سواء في القديم أو عند رواد المدرسة الكلاسيكية. أو في عصرنا الحديث، وهذه النظرة الثاقبة عند ابن خلدون تجعلنا نعتقد بأن الفكرة إذا كانت علمية وموضوعية فإنها لا تموت بتعاقب القرون ولكنها تبقى تحمل بذور الحياة، فإذا جاء من يغذيها وينـــقب عنها برزت ونمت وأخذت مكانتها بين الأفكار العلمية المعاصرة .

1. 3. : محددات القيمة عند ابن خلدون

قد يعتقد الدارس لموضوع القيمة عند ابن خلدون أن محددها الوحيد هو العمل غير أن ذلـــك يعتـــبر المحـــدد الأساسي وهناك محددات أخرى بجانبه سنتعرض إليها فيما يلي :

1 . 3 . 1: العمـــــل

إن الملاحظ مما سبق ذكره في الفرعين السابقين لا شك تستنتج بأن العمل الإنساني عند ابن خلدون يعتبر المحدد الأساسي للقيمة، حيث نراه يؤكد في أكثر من موقع في مواضيع المقدمة على أن السلع تستمد قيمتها من العمل الذي بذل فيها، بل في بعض المواقع توحي عباراته بأن هناك جزما بأن قيمة السلع والخدمات هي الأعمال الإنسانية (5: 5)

يقول ابن خلدون : " اعلم أن ما توفر عمرانه من الأقطار وكثرة ساكنه، إتسعت أحوال أهله وكثرت أموالهم والسبب في ذلك كثرة الأعمال التي هي سبب الثروة "

حيث يبرز لنا أهميته في العمل كوسيلة منتجة حقيقية وطبيعية .

يقول أيضا : " إذ ليس هناك إلا العمل وليس بمقصود بنفسه للقيمة، وقد يكون مع الصنائع في بعضها وغيرهـــا مثل النجارة والحياكة معهما الخشب والغزل، إلا أن العمل فيهما أكثر"

ومن هذه العبارة يتبين بأن ابن خلدون لم يجعل العمل هو المحدد الوحيد للقيمة، وإن اعتبره هو الأساسي، ولكن هناك محددات أخرى بجانب العمل قد لا ترقي إلى نفس أهمية العمل الإنساني ولكنها ضرورية في تحديد قيم الأشياء وهذا ما جاء في عبارته " ... مثل النجارة والحياكة معهما الخشب والغزل " ثم يؤكد بأن أكثر هذه المحددات هو العمل الإنساني فيقول : " إلا أن العمل فيهما أكثر "

وقد ذهب ابن خلدون إلا أن حجم القيمة يتناسب طرديا مع العمل المبذول فيها حيث يقول : " إن المكاسب هي قيم الأعمال فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمها " (17: 365)

وتجدر الإشارة إلا أن ابن خلدون لم يكتف بإثبات بأن العمل البشري هو المحدد الأساسي للقيمة بل استطاع أن يميز بين مفهوم أنواع العمل المحدد للقيمة، حيث فرق بين نوعين أساسين من هذا العمل، وهما علـــى التـــوالي العمل الظاهر (الحي) والعمل المخزون (المتراكم) وسنحاول أن نوضح مفهومهما عند ابن خلدون باختصار فيما يلي :

أ – العمل الظاهر

يقول ابن خلدون : " فلا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول، لأنه إن كان عملا بنفسه مثل الصنائع فظاهر، وإن كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعدن، فلا بد فيه من العمل الإنساني ... وإلا لم يحصل و لم يقع به الانتفاع " (2: 381)

ويتمثل العمل الظاهر عند ابن خلدون في ذلك النوع من العمل الذي يدخل بصفة مباشرة ويساهم في إنتاج السلعة أو الخدمة ويعبر عليه بالعبارة التالية :

" إن كان عملا بنفسه مثل الصنائع فظاهر "، ويفهم من هذا التعبير الخلدوني إنه ذلك العمل الذي يمكن ملاحظته خلال العملية الانتاجية، ويكون قادرا على خلق قيمة مباشرة، وإذا أردنا التوضيح أكثر يمكن القول بأن العمل الظاهر يمكن في الصنائع أي يبذل خلال مراحل تشكيل السلعة في العملية الانتاجية .

ب – العمل المخزون

يقول ابن خلدون :"وإن كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعدن فلابد فيه من العمل الإنساني ... وإلا لم يحصل و لم يقع بالانتفاع " (2: 381).

وهنا ينتبه ابن خلدون إلا أن هناك عملا غير العمل الظاهر وهو ذلك الجهد البشري الذي بذل في فترة زمنية سابقة للعملية الانتاجية وخزن أو تراكم في السلع والخدمات التي قد تدخل في العمليات الانتاجية اللاحقة (3: 110)

ويذهب ابن خلدون إلى أن الأشياء التي تراكم فيها غير الظاهر للعيان أو المستتر الذي في زمن ماض معين كالحيوان والنبات والمعدن لابد أن يكون من العمل الإنساني وإلا لم يحصل و لم يقع به الانتفاع .

وهذه التفرقة الدقيقة بين أنواع العمل الظاهر والمخزون الذي جاء بها ابن خلدون في القرن الرابع بقيت صحيحة وعلمية و لم يتمكن الفكر الاقتصادي المعاصر معرفتها إلا في القرن الثامن عشر، حيث أطلق آدم سميث رائد المدرسة الكلاسيكية على هذا التقسيم، مصطلح " العمل الآني، والعمل الماضي " بينما سماه ريكاردو " العمل الظاهر والعمل المتراكم" أما ماركس فقد سماه " العمل الحي والعمل الميت" .

وهكذا نلاحظ من هذه التسميات المختلفة لرواد الفكر الأوروبي الرأسمالي أو الإشتراكي أنهم لم يضيفوا شيئا إلى مفهوم وتقسيم العمل عند ابن خلدون وإنما قاموا بتغيير التسميات (5: 65).

لقد برز في الإقتصاد الوضعي لا سيما الأوروبي في القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر نقاش كبيرحول قيمة الأشياء، فقد ساد الإعتقاد بوجود القيمة الاستعمالية والتبادلية، ثم ظهر في الفكر الكلاسيكي اتجاه آخر يقوم على أن للسلعة قيمة استبدالية ولها منفعة، ثم تطور هذا الفكر ليعتقد أصحابه بتجريد القيمة من عنصر المنفعة، ثم ساد الإعتقاد لفترة طويلة بأن ليس للمنفعة دخل في تحديد القيمة بوجود عوامل أخرى تحدد القيمة ثم ظهر تيار فكري آخر يرى بأن المنفعة تعتبر من العناصر الأساسية المحددة لقيمة الأشياء. وغيرها من المناقشات التي انصبت في تحديد العوامل التي تحدد القيمة، كنفقات الانتاج، وتكلفة السلعة من نفقات النقل والضرائب والمكوس والتوقعات وما إليها .

وبعد أن ناقشنا المحدد الرئيسي للقيمة وهو العمل الإنساني في نظر ابن خلدون نحاول أن نتطرق إلى بقية المحددات التي دارت حولها المناقشات الفكرية لنتعرف عن رأي ابن خلدون فيها .

لقد عظم ابن خلدون دور العمل في حياة الإنسان، و لم يعتبره ضروريا من أجل إشباع الحاجات المتنامية للإنسان فحسب، ولكن اعتبره حاجة ذاتية يثبت بها الإنسان ذاته، فلا قيمة للإنسان ذاته إذا لم يكن لديه عمل.

يقول ابن خلدون : " وأما ما دون ذلك من الخدمة فسببها أن أكثر المترفين يترفع عن مباشرة حاجاته ويكون عاجزا عنها لما ربي عليه من خلق التنعم والترف فيتخذ من يتولى ذلك يقطعه عليه أجرا من ماله، وهذه الحالة غير محمودة بحسب الرجولية الطبيعية للإنسان (2: 360)

1 . 3 . 2 : المنفعة

يقول ابن خلدون : " إنه "القوت" لولا تخزين الناس له خوفا من حدوث نقص في إنتاجه مستقبلا لبذل دون ثمن ولا عوض "(2: 363)

ويقول أيضا : "واعتبر غاشية الإناس بغاشية العجم من الحيوانات وفتات الموائد بفضلات الرزق والترف وسهولتها على من يبذلها لاستغنائهم عنها في الأكثر لوجود أمثالها لديهم "(2: 362) .

ويتبين من هذا القول أن ابن خلدون عرف أن للمنفعة دورا كبيار في تحديد قيم الأشياء، بل نعتقد أن ابن خلدون قد اكتشف قانون تناقص المنفعة وتعرف عليه ففي عبارة : " لولا تخزين الناس له خوفا من حدوث نقص في إنتاجه مستقبلا لبذل دون ثمن ولا عوض " وهذا يدل على أنه كلما زاد المعروض من الشيء كلما أدى إلى إنخفاض قيمته إلى أن يبذل بدون ثمن ولا عوض أي لا يبادل بأي سلعة أخرى وهكذا تصل المنفعة الحدية لقيمة هذا الشئ إلى الإنعدام أي تساوي صفرا .

ثم نلاحظ في العبارة الأخرى : " وسهولتها على من يبذلها لإستغنائهم عنها في الأكثر لوجود أمثالها لديهم " .

فزيادة السلع وما إليها تؤدي إلى الإستغناء عنها أي تقل منفعتها لوجود أمثالها لديهم حتى تصل إلى درجة الإستغناء أي ينعدم عنها قيمة الشئ لذهاب منفعته لوجود أمثالها لديهم .

ويتبين من هذا القول أن ابن خلدون عرف أن للمنفعة دورا كبيار في تحديد قيم الأشياء، بل نعتقد أن ابن خلدون قد اكتشف قانون تناقص المنفعة وتعرف عليه ففي عبارة : " لولا تخزين الناس له خوفا من حدوث نقص في إنتاجه مستقبلا لبذل دون ثمن ولا عوض " وهذا يدل على أنه كلما زاد المعروض من الشيء كلما أدى إلى إنخفاض قيمته إلى أن يبذل بدون ثمن ولا عوض أي لا يبادل بأي سلعة أخرى وهكذا تصل المنفعة الحدية لقيمة هذا الشئ إلى الإنعدام أي تساوي صفرا .

ثم نلاحظ في العبارة الأخرى : " وسهولتها على من يبذلها لإستغنائهم عنها في الأكثر لوجود أمثالها لديهم " .

فزيادة السلع وما إليها تؤدي إلى الإستغناء عنها أي تقل منفعتها لوجود أمثالها لديهم حتى تصل إلى درجة الإستغناء أي ينعدم عنها قيمة الشئ لذهاب منفعته لوجود أمثالها لديهم .

ويتبين من هذا أن ابن خلدون يعتبر المنفعة من محددات السلعة فإذا زادت المنفعة إلى الشئ ورغب فيه الناس ارتفعت قيمته، والعكس صحيح، ولهذا ولتدعيم هذا الفرض يقدم ابن خلدون مثالا رائعا يبرر.. دخول عامل المنفعة لتحدد من محددات القيمة .

يقول ابن خلدون : " ... وذلك أن حكمة الله في الحجر – الذهب والفضة- وندورهما أنهما قيم لمكاسب الناس ومتمولاتهم ، فلو حصل عليهما بالصنعة لبطلت حكمة الله في ذلك وكثر وجودهما حتى لا يحصل أحد من إقتنائهما على شئ " (2: 360)

إن الوصول إلى صنع الذهب والفضة اللذين يعتبران العنصر المقبول والشائع بين الناس في التبادل يؤدي إلى تناقص المنفعة في إقتنائهما حتى تصل هذه المنفعة إلى الحد الذي يعرض فيه الناس على مبادلتهما لإنعدام المنفعة فيهم .

وبهذا يكون ابن خلدون قد دلل بكل علمية وموضوعية على أن المنفعة هي محددات القيمة، بل نراه من خلال هذا الطرح قد توصل إلى قانون تناقص المنافع أو سمي في الأدبيات الاقتصادية بقانون تناقص المنفعة ، فهو بذلك يبين بكل موضوع أن رابطة قوية بين الحاجة والمنفعة، فحاجة الناس إلى السلع والخدمات تكسبه منفعة تؤدي إلى زيادة قيمة الشيء، وكلما كانت الحاجة إلى السلع والخدمات قليلة أو مفقودة كلما أدى ذلك إلى فقدان جزء من قيمته، ويبقى في تناقص إلى أن تنعدم الحاجة فيفقد الشيء قيمته عندها نقول أن المنفعة تساوي الصفر، وهذا مادلت عليه عبارة ابن خلدون : " لبذل دون ثمن ولا عوض ".

1 . 3 . 3 : تكاليف الانتاج

يؤكد ابن خلدون بأن نفقات الانتاج تؤثر في تحديد قيم الأشياء، وقد لاحظ ابن خلدون هذه الظاهرة في الزراعة حيث تتأثر قيمة المزروعات بنفقات الانتاج التي تدخل في الزراعة وقد ترتفع قيمة المنتوجات الزراعية إذا ما أدخلت نفقات جديدة على عملية الانتاج الزراعي .

يقول ابن خلدون : " لما ألجأهم النصارى إلى سيف البحر وبلاده المتوعرة الخبيثة الزراعة النكدة النبات وملكوا عليهم الأرض الزاكية والبلد الطيب فاحتاجوا إلى علاج المزارع والفدن لإصلاح نباتها وفلحها وكان ذلك العلاج بأعمال ذات قيم ومواد من الزبل وغيره لها مؤونة، وصارت في فلحهم نفقات لها خطر فاعتبروها في سعرهم " (2: 328).

إن هذه النظرة التي استنتجها ابن خلدون من ملاحظة ظاهرة تغير في قيم المنتجات الزراعية بين بلاد المغرب وبلاد الأندلس عندما انتصر عليهم الإسبان وأرغموهم على التقهقر إلى الجبال والأراضي الأقل خصوبة، ولهذا فقد ارتفعت قيم المنتوجات الزراعية على ما كانت عليه في السابق حيث الأراضي الخصبة والمناخ الملائم وعن مثيلتها في بلاد المغرب والسبب في هذا الإرتفاع هو تلك الجهود والأعمال الإنسانية الإضافية التي دخلت بشكل أكبر من السابق في إصلاح الفدن ونباتها، وإيصال المياه إليها ومد الجسور وما إليها مما تتطلبه الأرض الوعرة، ضف إلى ذلك قلة خصوبة التربة، مما اضطر أهلها إلى إضافة المواد المخصبة لها مثل الزبل وما يدخل في شاكلته .

هذه النفقات الزائدة أدخلت في تحديد قيم المنتوجات الزراعية الأمر الذي أدى إلى إرتفاع قيمها .

1 . 3 . 4 : زيادة الضرائب، واشتغال السلطان بالتجارة

إن القيمة كما تتأثر بنفقات الانتاج فإنها تتأثر كذلك بنفقات أخرى مثل الضرائب المتنوعة التي تفرض من قبل الدولة على الأفراد، كما أن القيمة تتأثر كذلك بعوامل أخرى مثل إنتحال السلطان للتجارة وسنحاول أن نبين هذين المحددين بإختصار فيما يلي :

أ — زيادة الضرائب

يقول ابن خلدون : " وقد يدخل أيضا في قيمة الأقوات ما يفرض عليها من المكوس والمغارم للسلطان في الأسواق " (2: 364)

ويبين من هذه العبارة أن الضريبة تمارس أثرها على القيمة فتجعلها ترتفع، لأن الباعة يلجأون إلى تحميل المشترين عبء هذه الضريبة، وقد تكون في أكثر الأوقات تحميلا كليا، وهذا ما يسمى في الأدبيات الاقتصادية المعاصرة بنقل العبء الضريبي .

يقول ابن خلدون : " إن المصر الكثير العمران يختص بالغلاء في أسواق وأسعار حاجاته، ثم تزيدها المكوس غلاء ... والمكوس تعود إلى البياعات بالغلاء لأن السوق والتجار كلهم يحسبون على سلعهم وبضائعهم جميع ما ينفقون حتى في مؤنة أنفسهم فيكون المكس لذلك داخلا في قيم المبيعات وأثمانها " [28] إن ابن خلدون قد ذهب في هذه العبارة إلى تعيين وبكل وضوح المحددات التي تدخل بجانب العمل الإنساني في القيمة، فهو يبين من جهة بأن قيم الأشياء ترتفع بازدياد العمران أي التقدم الحضاري ثم يبين محددا آخر يزيد في إرتفاع قيم الأشياء وهي المكوس(الضرائب)، ثم يبين كيف أن التجار لا يتحملون شيئا من الأعباء الضريبة .

Activer W
Accédez au
l'ordinateur

بل ينقلوها على قيم السلع والبضائع، حتى تكاليفهم الشخصية ينقلوها أيضا فترتفع قيم الأشياء تبعا لذلك .

ويعتبر هذا الربط بين الضريبة والنفقة بعدا جديدا يضيفه ابن خلدون إلى الدراسات الاقتصادية في ذلك الزمن المبكر، ومعنى هذا أن النفقة على مؤونة التاجر تدخل في تحديد قيمة السلعة مثل دخول تكلفة العمل وغيره، وقد يكون هذا الأمر هو المتعارف عليه في الأدبيات الاقتصادية من أن أثر الضريبة على قيم الأشياء يتوقف على مدى قدرة البائع على تحميلها للمشتري، وذلك يتوقف على مقدار مرونة الطلب الذي يتحدد بدوره من خلال عوامل منها مدى ضرورة السلعة. (5: 76)

ب – ممارسة الدولة للتجارة

يناقش ابن خلدون ابتعادالدولة عن مهامها الرئيسية في إدارة شؤون البلاد وتسييرها ودخولها السوق بجانب التجار لممارسة التجارة يؤدي إلى تذبذب كبير في قيم الأشياء ويبعدها عن كثيرا على القوام والتوازن الذي هو أساس التبادل من الناس، فمرة قد يؤثر هذا الدخول إلى السوق إلى إنخفاض قيم البضائع والسلع وذلك عندما تنعدم المنافسة لسلع السلطان وبضائعه نتيجة إحتكاره للسوق وعدم قدرة بقية التجار لمنافسته نتيجة إنخفاض قيم سلع وبضائع السلطان من جهة والخوف من مقارنته من جهة أخرى. وهذا يؤدي إلى إنخفاض قيم السلع والبضائع التي بحوزة بقية التجار .

يقول ابن خلدون : " التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية " (2: 381)

وهذا يضطر التجار والفلاحين إلى بيع سلعهم على كساد من الأسواق بأبخس ثمن وربما يتكرر ذلك على التاجر والفلاح منهم بما يذهب رأسماله فيقعد عند سوقه، لأن إحتكار السلطان الذي يمثل الدولة يفقدهم كل مبادرة وكل تحكم في الأسعار .

يقول ابن خلدون : " إن تدخل السلطان يوقف كل مظاهر التوازن في السوق، لأن الرعايا متقاربون في اليسار، والمزاحمة بعضهم بعضا فتنتهي إلى غاية موجودهم أو تقرب، وإذا رافقهم السلطان في ذلك وماله أعظم كثيرا منهم فلا يكاد أحد يحصل على غرضه (2: 360)

أما التذبذب الذي يحصل في المرة الثانية فيكون بارتفاع قيم السلع والبضائع نتيجة سيطرة السلطان على السوق في عملية الشراء حيث يعمد إلى شراء السلع والبضائع من أربابها بأسعار زهيدة ثم يبيعها بالثمن الذي يفرضونه هم " أي الحكام " .

يقول ابن خلدون : " وقد تنتهي الحال بهؤلاء المنسلخين للتجارة والفلاحة من الأمراء والمتغلبين في البلدان أنهم يتعرضون لشراء الغلات والسلع من أربابها الواردين على بلدهم، ويفرضون لشراء ذلك ما يشاؤون، ويبيعونها في وقت لمن تحت أيديهم من الرعايا بما يفرضونه من الثمن " .

وهكذا تنتفع قيم البضائع والسلع في السوق نتيجة هذه التصرفات من الأجراء والمتغلبين في البلدان، وبهذا التحليل الدقيق يكون ابن خلدون قد تبحر في محددات القيمة، بشكل غير مسبوق .

1. 3 . 5 : تكاليف النقل والآفات السماوية

اعتبر ابن خلدون أن تكاليف النقل والآفات السماوية تدخل بشكل أو بآخر في محددات القيمة وسنتعرض إليها فيما يلي :

أ – تكاليف النقل :

بالرغم بأن وسائل النقل في عهد ابن خلدون كانت بدائية إذا ما قورنت بالوسائل التي ظهرت في العصر الحديث إلا أنها كانت ضرورية لعصرها ذلك، إذ كانت تلعب دورا هاما في توفير السلع والبضائع في الأسواق التي تفتقد إليها، ولا يخفى على عاقل أن هذا الدور الهام لم يكن بالأمر اليسير كما هو الحال اليوم، ولكنه كان

شاقا ومتعبا، وفيه تدوم الرحلة أكثر أو أقل من شهر حسب تباعد نقاط التبادل أو الأسواق، وقد توصل ابن خلدون إلى تفسير هذه الظاهرة حيث لاحظ بأن ارتفاع تكاليف النقل وزيادة مخاطر الطريق تؤدي إلى الزيادة في قيم السلع والبضائع، وقد علل ابن خلدون السبب إلى زيادة المخاطرة، فكلما كانت درجة المخاطرة كبيرة، كلما أدت إلى ارتفاع قيم السلع المنقولة .

يقول ابن خلدون : " وكذلك نقل السلع من البلد البعيد المسافة، أو في شدة الخطر في الطرقات يكون أكثر فائدة للتجار وأعظم ربحا، وأكفل بحوالة الأسواق، لأن السلعة المنقولة حينئذ تكون قليلة معوزة ... وإذا قلت وعزت غلت أثمانها، وأما إذا كان البلد قريب المسافة. والطرق سابل بالأمن، فإنه حينئذ يكثر ناقلوها، فتكثر وترخص أثمانها " (2: 396)

ويتبين من هذا القول أن ابن خلدون ربط زيادة ونقصان قيم السلع والبضائع في هذه المحددة بنقطتين أساسيتين، أولهما خطورة الطريق وبعد وقرب الأسواق .

ب – الآفات السماوية :

الآفات السماوية التي ذكرها ابن خلدون في اعتقادنا هي تلك الكوارث الطبيعية التي تحدث قضاء وقدر، وليس للإنسان يد في حدوثها، وهذه الكوارث تؤدي إلى حدوث كثيرا من الأضرار سواء بالمنتجين أو التجار، وهذه الكوارث مثل الفيضانات والحرائق والزلازل والبراكين وما إليها من ظهور أمراض في النبات والحيوان فيهلكه، وغيرها من الآفات كالجراد والجفاف وما إليهما ...

يقول ابن خلدون : " فتفضل الأقوات عند أهل المصر من غير شك فترخص أسعارها في الغالب إلا ما قد يصيبها في بعض السنين من الآفات السماوية " (2: 363)

ويتبين من هذه العبارة الخلدونية أن هذا المحدد هو دوري وليس غالبا في في تحديد قيمة الأشياء إذ أن هذه الآفات لا تظهر بصفة دائمة ومستمرة .

المحاضرة الحادية عشرة: مدرسة شيكاغو

المراجع

- الغزوي، فهمي وآخرون، 2006، **المدخل إلى علم الاجتماع**، دار الشروق للنشر للتوزيع،عمان: الأردن.(مرجع رئيسي)
- بدوي، السيد مجمد، 1981، مبادئ علم الاجتماع، ط2، دار المعارف، الإسكندرية.
- بركات ،حليم، 2000، **المجتمع العربي في القرن العشرين** ، ط، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية.
- جدنز، انتوني، 2005، **علم الاجتماع (مع مدخلات عربية)**، ط4، ترجمة فايز الصياغ، مركز دراسات الوحدة العربية.
- خمش، مجد الدين، 1998، **علم الاجتماع**، دار مجدلاوي، عمان: الأردن.
- عثمان، إبراهيم، 1999، **مقدمة في علم الاجتماع**، دار الشروق للنشر للتوزيع، عمان: الأردن.
- الدقس، محمد، 1996، **التغير الاجتماعي بين النظرية والتطبيق**، دار مجدلاوي، عمان: الأردن.

مدرسة شيكاغو و الظاهرة الحضرية:

يعتبر ظهور مدرسة شيكاغو بمثابة ثورة كبرتيكية في تاريخ السوسيولوجيا، نظرا لما أحدثه في سيرورة علم الاجتماع من تغيرات لا على مستوى الموضوع فقط بالاهتمام بظاهرة التحضر والهجرة وغيرها من الظاهر الأخرى، بل كذلك على مستوى البحث السوسيولوجي وتقنياته، ومناهجه، الذي بقي وفيا للبحث السوسيولوجي النظري في أوربا، أما في الولايات المتحدة الأمريكية، مع رواد مدرسة شيكاغو فقد اتجه البحث السوسيولوجي الميداني نحا آخر، ينطلق من الميدان ومن الواقع باعتباره مختبرا غنيا بالمعطيات والوقائع والأحداث والأفعال والظاهرة الاجتماعية، وذلك بابتكار تقنيات وأدوات علمية جديدة ومناهج ونظريات ومقاربات ومفاهيم... كل هؤلاء الابتكارات التي يعود فيها الفضل لرواد مدرسة،جعلت من علم الاجتماع حسب بيرجس وبارك يقولان في كتابهما:" مقدمة لعلم السوسيولوجيا" يبدو أن علم الاجتماع قد أصبح اليوم على الطريق ليصبح بشكل أو بآخر علما تجريبيا".

ومن العوامل الأساسية التي أدت الى ظهور هذه المدرسة المتميزة في تاريخ السوسيولوجيا هو تلك التحولات الكبرى التي عرفتها مدينة شيكاغو في أواخر القرن 19 وبداية القرن20، والتي كان من نتائجها ظهور العديد من الظواهر الاجتماعية(الفقر+ الهجرة+الإجرام+الانحراف+الدعارة+الصراعات الاثنية...) والاختلالات البينونة في المدينة التي أصبحت مسرحا غنيا بالظواهر الاجتماعية المرضية، هذا بالإظافة الى مجموعة من العوامل الأخرى كنشأة السوسيولو جيا في جامعة شيكاغو والدور الذي لعبته حركة الإصلاح الاجتماعي والتحقيقات الاجتماعية التي عرفتها الولايات المتحدة الأمريكية، كما كان لبعض العوامل الأخرى الفكرية والفلسفية دور حاسم في نشوء هذه المدرسة ولعل أهمها هو التأثير الذي أحدثته الفلسفة البركماتية في U.S.A خلال فترة العشرينيات والثلاثينيات من القرن 20، والتأثير الذي أحدثه التيار التفاعلي الرمزي في رواد المدرسة.

ويبقى من الصعب التطرق الى كل انتاجات سوسيولوجيا مدرسة شيكاغو وحتى جزء منها نظرا لضخامتها من جهة ولضيق الوقت من جهة أخرى، لذلك سوف نقتصر على بعض أفكار رواد هذه المدرسة حول التحضر والهجرة وبعض الإشكالات الحضرية الأخرى، وذلك بشكل مقتضب.

أهم رواد مدرسة شيكاغو

أ- ماركس و سوسيولوجية المدينة:

في تناولهما لأهم المراحل الكبرى التي مرت بها المجتمعات البشرية في تطورها التاريخي، حاول كل من كارل ماركس وفريدريك انجلز، من خلال تحليلهما المادي التاريخي والمادي الجدلي لتطور أنماط الإنتاج في المراحل الخمس التطرق الى مسألة العلاقة بين المدينة والبادية إدماجهما للبعد الحضري في دراستهما لأهم التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي عرفتها أوروبا في بداية القرن 19.

وقبل ماركس نجد في هذا الإطار مساهمة ف.إنجلز (1820-1895).خاصة في كتابه "حالة الطبقات العاملة في انجلترا" الذي صدر سنة 1845. والذي خصص فيه فصلا للمدينة عنونها ب " المدن الكبرى "، وتحدث فيه عن المشاكل التي صاحبت ارتفاع وتيرة التحضر. كما عمل على تقديم قراءة سوسيولوجية، للوضعية الطبقة العاملة من خلال عرض حالة البؤس والفقر والاستغلال الذي تتعرض له، كما تطرق إلى مسألة النمو الحضري العشوائي الناجم عن الطريقة التي تخفي بها البلدان المتقدمة والمصنعة الوجه الأخر لتقدمها الصناعي... وتطرق فيه كذلك الى أزمة السكن وانتشار الأحياء الهامشية المجاورة للأحياء الراقية، ووجه انتقادا لاذعا للتطور الرأسمالي في بعض المدن الكبرى(لندن)، وأعتبر أن أزمة السكن والاستغلال الذي تتعرض له الفئات المقصية اجتماعيا القاطنة بالأحياء الهامشية"، هو مؤشر أساسي للاحتكار الاستغلال الرأسمالي ... وبذلك فإن أحسن وسيلة للقضاء على هذه الأزمة هي القضاء بشكل نهائي على الاحتكار والاستغلال الذي تمارسه الطبقة الرأسمالية على الطبقة العاملة.

وفي كتابهما المعنون بـ " الايدولوجيا الألمانية" (1846-18475) نجد ماركس وانجلز، يتطرقان للمسألة الحضرية من خلال حديثهما عن ظاهرة تقسيم العمل التي فرقت بين المدينة والبادية" إن تقسيم العمل داخل أمة ما يفترض أولا تقسيم العمل الى عمل صناعي وتجاري من جهة، وعمل فلاحي من جهة أخرى، ومن ثم التفريق بين البادية والمدينة وتعارض مصالحهما".

وفي نفس السياق نجدهما يقولان :" إن أكبر تقسيم للعمل المادي والفكري هو الفصل بين المدينة والبادية. إن التعارض بين المدينة والبادية قد أخذ في الظهور مع الانتقال من التوحش الى الحضارة، من التنظيم القبلي الى الدولة، من الإقليمية الى الأمة. وظل هذا التعارض قائما على امتداد تاريخ الحضارة إلى اليوم. إن وجود المدينة يستدعي في نفس الوقت ضرورة وجود الإدارة والشرطة والضرائب....الخ. أو بكلمة واحدة ضرورة التنظيم الجماعي، ابتداء بالسياسية عموما، وهنا سيظهر لأول مرة تقسيم السكان الى طبقتين كبيرتين. وهو تقسيم يرتكز مباشرة على تقسيم العمل ووسائل الإنتاج".

ومن خلال التتبع التاريخي لظاهرة تقسيم العمل بين البادية والمدينة، بين ماركس وانجلز انه ابتداء من عصر الإقطاع الذي تنامت فيه الفوارق الطبقية بين المدينة والبادية، لأن البنية الإقطاعية المعتمدة على الملكية الواسعة للأرض واستعباد الأقنان تتمركز في البوادي، في حين أن المدن ستشهد تركز الملكية التعاونية التي تعبر عن التنظيم الإقطاعي للحرف. وستدعو حاجة هذا التنظيم الصناعي التجاري لليد العاملة الى العمل على استيعاب واحتواء الأقنان الذين كانوا يفرون بشكل جماعي في اتجاه المدن المزدهرة طيلة القرون

الوسطى. إن هؤلاء الأقنان الذين كانوا يذوقون مختلف أصناف العذاب على أيدي أسيادهم في البادية سيفرون الواحد تلو الآخر الى المدن، حيث توجد مجموعة سكانية منتظمة....حتى يتخلصوا إذن من العذاب المسلط عليهم من طرف الإقطاعيين، باعتبار أن المدينةحسب ماركس ليست مجالا للحرية والعمل الفكري فحسب، بل إنها أيضا المجال المفضل والأحسن للعيش والسكن(...) إ المدينة هي نتاج لتركز السكان والأدوات ورأس المال والمتع والحاجات، بينما البادية "تبرز واقعا مضادا هو العزلة والتشتت".

وفي البيان الشيوعي لهما نجد هناك دعوة واضحة للقضاء على التعارض القائم بين البادية والمدينة وإنهاء تبعية البادية للمدينة التي تبقى رهينة بانجاز المهام الملقاة على عاتق البروليتاريا. وحسب انجلز فإن فشل النظام الرأسمالي في حل أزمة السكن راجع بالأساس الى فشله في القضاء على التعارض القائم بين البادية والمدينة.

ورغم الانتقادات التي توجه الى التحليل الماركسي للظاهرة الحضرية، خاصة الانتقادات الموجهة لهنري لوفيفر من خلال اهتمامه بظاهرة التحضر الشامل للمجتمع، من طرف بعض الرواد المعاصرين الماركسيين الذين اهتموا بالظاهرة الحضرية، والذين ينتمون لتيار الماركسية البنيوية، مثل كاستيل، ولوجكين، وكودار، فإن الاتجاه الماركسي مع ذلك سيظل حاضرا في الدراسات الحضرية الحديثة وسيتخذ أبعادا جديدا في تحليله المادي للواقع الحضري الحالي، ليكشف عن الميكانيزمات المتحكمة فيه، والتي غالبا ما تكون مرتبطة بنوعية التنظيم السياسي السائد، أو ميزان القوى الاجتماعي أو علاقات الإنتاج السائدة، والمحددة في أخر المطاف لمسلكيات مختلف الفاعلين الاجتماعيين والمتدخلين العقاريين.

ب- المدينة عند إميل دوركايم كمجتمع للتضامن العضوي:

رغم كون الأب الروحي للسوسيولوجيا لم يخلف لنا تعريفا محددا للمدينة فإنه تطرق للظاهرة الحضرية من خلال اهتمامه هو الأخر بمسألة تقسيم العمل في أطروحته التي تحمل عنوان " في تقسيم العمل الاجتماعي" وفي هذا الكتاب التقى دوركايم دوركايم بالمدينة وذلك من خلال سعيه لتفسير عملية الانتقال من مجتمعات التضامن الآلي الى مجتمعات التضامن العضوي، هذا الانتقال يحث حسب دوركايم بالارتفاع التدريجي في الكثافة المادية (الديمغرافية) في المجتمع، والتي تهيئ وتنتج بدورها ارتفاع الكثافة الروحية فيه.

وأهم ما يميز البادية عن المدينة عند إميل دوركايم هو سيادة التضامن الآلي المبني على التشابه على كافة المستويات (العقلية والمهنية) على على البادية والمجتمعات التقليدية التي لا تعرف تقسيما للعمل أو تعرف التقسيم البسيط المبني على الجنس، ولا يتمتع فيها بأية شخصية مستقلة لأنه يتماهى ويتشابه مع الآخرين، ويتصرف وفقا للأعراف والعادات السائدة والمتوارثة. إنها مجتمعات تجزيئية أو مجتمعات للتضامن الآلي، أما الثانية أي المدينة، فهي يطغى عليها التضامن العضوي، القائم بين أفرادها المختلفون مع بعضهم البعض، لأن الفرد في المدينة رغم كونه يصبح أكثر حرية على المستوى الشخصي فإن ظاهرة تقسيم العمل الكثيفة فيه تجعله في حاجة الى الآخرين، ومن هنا فان التضامن هنا يتم عن طريق الاختلاف وذلك ما يسميه دوركايم بالتضامن العضوي، مشبها بذلك المجتمع الحضري بأعضاء الكائن الحي التي تختلف وتتباين ولكنها تتكامل وتتضامن.

ويعتبر دوركايم المدينة مجالا لتكدس أعداد كبيرة من الناس في رقعة أرضية صغيرة، مجالا يتميز بالكثافة المادية (الديمغرافية) المرتفعة التي تنعكس على الكثافة الروحية للمدينة، وكما يتميز بغياب التنظيم الاجتماعي التجزيئي (...) لأن المدن تنتج دائما من الحاجة التي تدفع الأفراد الى البقاء دوما في اتصال حميمي مع بعضهم البعض كما تتميز كذلك بسرعة وانتشار المواصلات والاتصال والتجهيزات.

وقد كان لدوركايم تأثيرا كبيرا على علم الاجتماع الحضري فيما بعد، وخاصة موريس هالفاكسن وبعض رواد مدرسة شيكاغو، وخاصة منهم لويس وورث، الذي يعتبر امتدادا للاتجاه الوضعي في الدراسات الحضرية. غير أن نظرة كل من دوركايم وورث تختلف للمدينة. بحيث أنه إذا كان دوركايم يعتبر بأن المدينة والتمدن هو صورة نموذجية للتقدم الإنساني وللحداثة، حيث يتحقق التضامن العضوي المفضي الى مزيد من التقدم والحرية والرخاء... فإن وورث ينظر الى المدينة نظرة تشاؤمية وبئيسة باعتبارها مجالا لانتشار مختلف الأمراض والانحرافات الاجتماعية التي تجد فيها أرضيتها الخصبة.

ج- المدينة عند ماكس فيبر:

لقد دخلت السوسيولوجيا الحضرية مع ماكس فيبر مسارا آخر، انطلاقا من الاهتمام العلمي بالظاهرة الحضرية التي خصها بكتاب شامل أسماه بـ " المدينة" الذي يؤرخ فيه لبداية الاهتمام السوسيولوجي بالظاهرة الحضرية. وقد شكل له ماركس شبحا طالما تحاور معه من أجل تجاوزه من خلال تفنيد التحليل الماركسي الأحادي لظاهرة نشوء المدن وتطورها.

وقد بنى ماكس فيبر تصوره للمدينة انطلاقا من منظور تاريخي مقارن، بدأ فيه من مدن مصر وما قبل الميلاد الى المدينة الرومانية والإسلامية والآسيوية والأوربية القرسطوية والروسية...

والملاحظ عند ماكس فيبر في تناوله لمفهوم المدينة، أنه اعتبر أن النموذج المثالي للمدينة لا وجود له على الإطلاق في التاريخ إلا في أوربا الغربية. لأن المدينة الأوربية هي قمة ما بلغته العقلنة الحضرية من ترشيد وعقلنة وسلطة وبيروقراطية، وديمقراطية ومجالس سلطوية وقضائية ومالية وقوانين ودساتير...وفي محاولته لتعريف مفهوم المدينة يقول بأنه من وجهة النظر السوسيولوجية لا يوجد تعريف واحد للمدينة. وعندما أراد صياغة تعريف نموذجي للمدينة قال:" يمكننا تعريف المدينة بطرائق متعددة، وكل التعاريف تشترك في نقطة واحدة وهي أن المدينة لا تكمن في سكن واحد أو سكنات متعددة منتشرة بشكل مبعثر، إنها تتشكل على كل حال من السكن المتجمع (ولو نسبيا)، وفي المدن تبنى الدور بالقرب من بعضها البعض، والقاعدة العامة هي أن تبنى حائطا لحائط. إن التصور الشائع في الوقت الحاضر يربط المدينة بخصائص كمية محضة.

وما يميز البادية عن المدينة، هو أن الأولى تعرف انتشار كثافة سكانية مرتفعة في مجال ترابي ضيق، كما أن سكان المدينة لا يعرفون بعضهم البعض معرفة شخصية متبادلة، غير أن حجم السكان وحده لا يعطي صورة دقيقة لمفهوم المدينة حسب فيبر، لذلك وجب الأخذ بعين الاعتبار كذلك دينامية العلاقات الاجتماعية والشروط والأوضاع الثقافية.

ولم يكتف فيبر بهذا التعريف السوسيولوجي النموذجي للمدينة، بل أعطى مجموعة من التصنيفات النظرية والنماذج المثالية الأخرى حول المدينة وذلك انطلاقا من هاجس العقلنة والشرعنة، وبذلك فقد حدد المدينة من خلال الأبعاد التالية:

المدينة ككيان اقتصادي: نظرا لكون الطبيعة الاقتصادية للمدينة تجعل منها تجمعا سكانيا تجاريا وسوقا دائما، لأن وظيفتها الأولى هي بالأساس وظيفة اقتصادية.

المدينة ككيان سياسي: على اعتبار أن الأنشطة الاقتصادية والإدارية في المدينة لا يمكن ضبطها وتسييرها على نحو جيد إلا إذا توفر نمط معين من التنظيم الإداري والقانوني.

المدينة ككيان إداري/ قانوني: نظرا لكون المدينة هي بالأساس كذلك مركزا إداريا وتجمعا لمجوعة من الوظائف والأنشطة والمؤسسات السياسية للحكم المركزي.

وهكذا فرغم أهمية المنظور التاريخ عند فيبر في تناول الظاهرة الحضرية من منظور متعدد الأبعاد، فإنه بتعريفه النموذجي المثالي للمدينة يسقط في النزعة المركزية عندما اعتبر أن مفهوم المدينة لا توجد إلا في أوربا الغربية بالإضافة الى غياب النمط الايكولوجي في تحليله للظاهرة الحضرية كما هو الحال عند رواد مدرسة شيكاغو وغياب تركيزه على ظاهرة تقسيم العمل كما هو الحال عند ماركس ودوركايم، فقط اقتصر اهتمامه على الظاهرة الحضرية من خلا ل اعتبارها مركزا للسلطة والعقلنة والبيروقراطية.

د- جورج زيمل والمدينة الميتروبول الحديثة:

لقد كان جورج سيمل 1858-1918) واحد من علماء الاجتماع الألمان الذين عايشوا أهم التحولات والتغيرات الاجتماعية التي عرفتها ألمانيا وأوربا بصفة عامة في بداية القرن 20 ، وما ترتب عن التصنيع من ظواهر حضرية جديدة جاءت نتيجة لعملية الانتقال السريع من الحياة القروية البسيطة الى الحياة الحضرية المعقدة في ألمانيا

ومع سيمل انتقلت السوسيولوجيا الحضرية من محاولة تعريف المدينة الى تحليلها، ومن دراسة المدينة الماضية الى دراسة المدينة الحاضرة، الى درجة أصبح يعتبر فيها احد رواد مدرسة شيكاغو، رغم أنه لاعلاقة بهذه المدرسة لا من حيث الزمان ولا من حيث المكان.

وفي مقال له حول " المترو بول والحياة الذهنية"، حاول سيمل تحليل العلاقة بين الثقافة والمجال داخل الوسط الحضري للمدن الكبرى في ألمانيا "كبرلين"، وفق منهج شكلاني تأثر به بشكل كبير رواد مدرسة شيكاغو، أعتبر أن المدن الكبرى هي ظاهرة جديدة ارتبطت بالتحولات الكبرى التي أوروبا الغربية على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي...وإثر الانتقال الديموغرافي والهجرة والتوسع الحضري ...وبالانتقال من الأشكال التقليدية للمجتمع المحلي الى الأشكال الحديثة في المجتمع الحضري المعقد والمركب، توسعت المدن وانتشرت مظاهر الاستلاب والعزلة والعلاقات اللاشخصية وما دامت المدينة عند سيمل هي فضاء للسوق والتبادلات الاقتصادية، فإن العلاقات الإنسانية فيها تشيىء ويصب فيها كل فرد غير مبالي بالآخرين المحيطين به ، نظرا لانتشار الفردانية ...وما دامت المدينة عند سيمل تساهم في إحداث تغيرات ثقافية واجتماعية في حياة الانسان ، فان هدا الأخير يصبح فيها مستلبا ويتميزا بمجموعة من الخصائص الأخرى كالاستقلال الفردي وسيادة العقل الحسابي والتجريدي وغياب العاطفة والعقلنة وتقسيم العمل الأكبر... وبذلك فإن سيمل يلتقي هنا في تحليله للمدينة المتروبول، مع بعض التحليلات السوسيولوجية لمعاصره من علماء الاجتماع، كدوركايم في مفهوم تقسيم العمل والأنومي... ومع فيبر في مفهوم العقلنة، ومع تونيز في مسألة الفرق بين المجتمع المحلي والمجتمع الكلي، ومع ماركس في مفهوم الاستيلاب. وبذلك فإن المتروبول عند سيمل هي مجال كل هذه التناقضات السالفة الذكر،كما أنها هي مجال للاقتصاد النقدي كموضوع مهيمن في المدن الكبرى التي تسلب الفرد من إنسانيته وتجعله غريبا عن مجتمعه، بسبب تراجيديا الثقافة المتروبولية.

هـ- وليام اسحاق طوماس، وفلوريان زنانيكي ودراستهما "للفلاح البولوني":

لقد تطرق كل من طوماس وزنانيكي في دراستهما هاته المنشورة ما بين 1918- 1920، والتي يعتبرها علماء الاجتماع أول بحث يستحق نعت بحث سوسيولوجي، لوضعية الفلاحين البولونيين في موطنهم الأصلي وثم وضعيتهم بعد هجرتهم الى أمريكا، من أجل التعرف على نمط عيشهم في بولونيا ثم ما طرأ من تغيير على نمط عيشهم وأوضاعهم الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بعد هجرتهم الى أمريكا، ومن خلال اعتمادهما على تقنيات جديدة في البحث السوسيولوجي كحكايا الحياة ودراسة الحالة (المنهج البيوغرافي)، استطاع كل منهما تحليل وفهم كل الإشكالات المرتبطة بهجرة الفلاح البولوني، ولعل أهم مفهوم تم الخلوص اليه في هذه الدراسة هو مفهوم سوء التنظيم الاجتماعي واعادة التنظيم الذي يعني ضعف وتراجع تأثير القواعد الاجتماعية بين أفراد الجماعة، واعتبر أن الهجرة هي ظاهرة ناتجة بالأساس عن سوء التنظيم الاجتماعي والتفكيك الذي يعرفه المجتمع، كما أن الهجرة تصبح مصدرا للتفكيك الاجتماعي بالوسط الحضري، وذلك نتيجة للارتفاع السريع للكثافة السكانية...وقد لاحظ طوماس أن هجرة الفلاحين البولونيين الى أمريكا تتسبب في خلق نوع من سوء التنظيم وحدوث صراعات داخل الأسرة وارتفاع نسبة الجرائم... غير أن هذه الحالة من سوء التنظيم لا تستمر الى ما لا نهاية، فكما هو الشأن بالنسبة لمفهوم الأنومي Lanomie عند دوركايم، فإن سوء التنظيم هو حالة مؤقتة بحيث سرعان ما تسعى جماعة المهاجرين الى تنظيم نفسها Réorganisation من خلال إنتاج قواعد وقيم جديدة تتلاءم مع واقعها الجديد حتى يستطيع المهاجر الاندماج في المجتمع الأمريكي.

و- روبرت ايزرا بارك والمقاربة الايكولوجية للتحضر والهجرة:

يعتبر بارك الأب الروحي لمدرسة شيكاغو بدون منازع، نظرا لضخامة الانتاجات السوسيولوجية التي ألفها حول مجموعة من الظواهر الحضرية كالهجرة والتفكك العائلي والسكان المشردون وعصابات الأحداث الجانحين والغيتو والانتحار ومناطق السكن الفقيرة والغنية ومناطق الجنوح القوي وفتيات طاكسي، والعائلة الجنزية وتنظيم الدعارة والسود والصراعات الاثنية...كل هذه الظواهر الاجتماعية التي صاحبت التوسع الحضري الذي عرفته مدينة شيكاغو بفعل تعدد الأقليات الاثنية قد تطرق لها بارك بالدراسة والتحليل وفق منظور ايكولوجي ينطلق في تفسيره لها من التفاعل الحاصل بين المجال الحضري بكل ما يزخر به من خصوصيات وأنماط وقيم وبين الانسان وما يمتلكه من مواقف وتمثلات.

وانطلاقا من الايكولوجيا الإنسانية اعتبر بارك أن دراسة الانسان ينبغي أن تتم على أساس دراسة التفاعلات بينه وبين الوسط الطبيعي والجغرافي الذي ينتمي اليه، معتبرا بذلك المدينة من هذا المنظور الايكولوجي مجالا غنيا بالتفاعلات والديناميات الاجتماعية. أو بلغة بارك نفسها أن المدينة هي مختبر اجتماعي لتحليل وفهم كل الظواهر الحضرية.

وفي اطار حديث بارك على ظاهرة الهجرة الإنسانية والتحضر، اعتبر أن هجرة الفلاح الى المدينة هي ظاهرة تاريخية وعملية دائمة لا يمكنها أن تتوقف، ولكنها تتحول مشكلة اجتماعية عندما يتم السعي الى حلها عن طريق الإدماج الحضري أو ما يسميه بارك بعمليه الانصهار، لأن الثقافة التي يحملها المهاجر القروي التي يتميز بهيمنة الأعراف والتقاليد الجامدة عليها، تختلف عن الثقافة الحضريةالتي تتميز بسيادة الفردانية والرأي العام والقانون الوضعي.

وهكذا يمكن القول بأن أهم ما ميز بارك في دراسته لكل الظاهر الاجتماعية الحضرية هو هيمنة البعد الايكولوجي عليه في تناوله لهذه الظواهر معتبرا المدينة مجالا خصبا ومختبر ا اجتماعيا لدراستها، وقد قال بارك مخاطبا طلابه " ارجعوا كل علاقة اجتماعية الى علاقة مجالية وعندئذ يمكنكم أن تطبقوا على العلاقات بين الناس المنطق الأساسي للعلوم الفيزيائية.

بالاظافة الى توماس وزنانيكي وبارك نجد هناك مجموعة من علماء الاجتماع الذين اهتموا بالظاهرة الحضرية، بشكل عميق كبرجيس الذي اهتم بدراسة النم الحضري وأثره على الحياة الاجتماعية ، ولويس وورت الذي حاول صياغة مقاربة ثقافية لظاهرة التحضر من خلال تعريفه السوسيولوجي الشامل للتحضر باعتباره نمط في العيش وتوسع في المجال الحضري، ونجد كذلك روبرت ردفيد الذي قارب الظاهرة الحضرية من منظور أنتروبولوجي منتهيا الى صياغة نظرية المتصل الريفي الحضري"continuim rural– urbain " التي حاول من خلالها البرهنة على أنه من الصعب في زمننا الحاضر الحديث عن وجود مجتمع حضري خالص ومجتمع قروي خالص.

مناهج البحث عند مدرسة شيكاغو

تميزت هذه المدرسة بمقاربتها المنهجية الميدانية العميقة، حيث ركز روادها على الأبحاث الإجتماعية والإحصائيات، وكذا على المناهج التجريبية كالملاحظة الموضوعية للواقع الاجتماعي والوثائق الشخصية والرسمية، وقد اعتبرت الدراسة التي أنجزها "توماس ويزنانسكي" حول "الفلاح البولوني" أول دراسة سوسيولوجية تعتمد هذا المنهج، الأمر الذي شكل قطيعة مع تقاليد البحث السابقة، أي الإنتقال من البحث سوسيولوجي مكتبي إلى بحث سوسيولوجي ميداني يعتمد على السيرة الذاتية والمراسلات الشخصية والجرائد والشهادات، نفس الشيء بالنسبة ل"روبير بارك" الذي شكل قاعدة معطيات من الوثائق حول المدينة ووضعها رهن إشارة الطلبة الراغبين في دراسة الظواهر الإجتماعية.

كان هدفهم من ذلك هو إنتاج معرفة مفيدة يستعين بها أصحاب القرار في بناء سياسات للمراقبة الإجتماعية والإصلاح، إذ ركزوا اهتمامهم على وصف وتحليل وفهم التحولات الإجتماعية الكبيرة التي رافقت النمو الكبير الذي عرفته المدن الأمريكية، خاصة مدينة شيكاغو. وبهذا درسوا عدة مؤسسات إجتماعية كأسر المهاجرين ووصفوا مونوغرافيا أحيائهم ، كما قدمو تحليلات حول الجرائم المنتشرة بهذا الوسط الحضري.

جعلت هذه المقاربة المنهجية رواد مدرسة شيكاغو يتجاوزون التفسير الأخلاقي للظواهر الإجتماعية، وذلك بإعتماد تحليل موضوعي للواقع الإجتماعي، وهو ما أعطى شهادة ميلاد للسوسيولوجيا الإمبريقية الأمريكية التي أثرت كثيراً في العديد من الباحثين في مجال العمل الإجتماعي الذين كانوا يتابعون دروسهم بجامعة شيكاغو.

يقتضي تحليل الواقع الإجتماعي حسب هؤلاء معرفة الطريقة التي يرى بها الأفراد الأوضاع التي يعيشونها في وقت محدد وكيفية تعريفها. فالتحليل السوسيولوجي حسب رأيهم يجب أن يأخذ بعين الإعتبار القيم والقواعد والظواهر الإجتماعية الخارجة عن الأفراد، ومن جهة أخرى المواقف الشخصية التي تشكل النسخة الذاتية للقيم. فالقيم الاجتماعية والمواقف الفردية هي التي تواجه الفعل عند كل فرد عبر مجموعة من الرغبات التي لا تلبيها سوى البيئة الإجتماعية .

فلهم الكيفية التي يتصرف بها كل مهاجر وفق الطريقة التي يعيش بها وضعيته في لحظة معينة، يجب تجميع المعطيات والوثائق التي ستمكن من الدخول إلى ذاته، كسيرة حياته ورسائله الخاصة أو ما إلى ذلك. وهذه التقنيات الميدانية هي التي سيتم استعمالها في شعبة السوسيولوجيا بجامعة شيكاغو حتى أواخر الثلاثينات من القرن العشرين، فهي تتكامل فيما بينها حسب طبيعة الدراسة وحسب أهداف الباحثين، كما أنها ساهمت في التوجه نحو دراسة الحالات عوض دراسة البنيات الإجتماعية الخفية، لأنها تمكن من فهم معنى تصرفات كل فرد وكذا معرفة الوضع الإجتماعي والثقافي التي تسجل فيها تصرفاته.

قضايا السوسيولوجيا الحضرية عند مدرسة شيكاغو

باعتماد المناهج السالفة الذكر، أسس رواد مدرسة شيكاغو لسوسيولوجية حضرية تشتغل على المشاكل الإجتماعية لمدينتهم، خاصة المترتبة منها عن الهجرة القروية إلى هذه المدينة مطلع القرن العشرين، فمن قرية صغيرة لا تظم سوى عشرة منازل سنة 1830 أصبحت شيكاغو تضم حوالي مليون نسمة سنة 1890 وأكثر من ثلاثة ملايين نسمة خلال عقد العشرينات من القرن الماضي. هذا التمدن السريع يعود إلى كونها ملتقى العديد من الطرق البرية والبحرية، إظاف إلى استقبالها العديد من المهاجرين الأوروبيين الوافدين من الدول الأوروبية كألمانيا، إيرلاندا، إيطاليا، بولونيا والنشيك...ومن أبرز رواد هذه المدرة "William I. Thomad" :الذي اشتغل على دراسة الأصول القروية لسكان المدين، و "Robert Ezra Park"الذي اهتم بقضايا الأقليات داخل المدينة، و "Ernest Burgess"و "Roderick Mac Kenzie وآخرون إشتغلو على الإيكولوجيا الحضري، ثم "لويس وورث" الذي اشتغل على الثقافة الحضرية للمدينة.

مناقشة أفكار مدرسة شيكاغو

الى هنا يمكن القول، أن مدرسة شيكاغو تبقى محطة لامعة في تاريخ السوسيولوجية، نظرا للنقلة النوعية التي أحدثتها في الأسس الابستيمولوجية والميتودولوجية لعلم الاجتماع، ونظرا لاهتماماتها المكثفة للظاهرة الحضرية وفق منظور متعدد الأبعاد ينطلق من العلاقة التفاعلية بين المجال الحضري والثقافة في اطار مقاربة ايكولوجية إنسانية.

ورغم كل هذا فان مدرسة شيكاغو لم تسلم من الانتقادات التي وجهت لها، وقد ركزت هذه الانتقادات على ثلاث نقط أساسية: بداية من النموذج الايكولوجي الذي اعتبر بعيدا عن مقاربة الظاهرة الحضرية والسلوك الاجتماعي للفرد، ثم انتقادات أخرى ركزت على الجانب المنهجي ، من خلال اعتبار التقنيات الامبريقية التي استعملها رواد المدرسة ، ناقصة وبالتالي لايمكن أن تؤدي الى التوصل الى نتائج علمية دقيقة. بقدر ما تؤدي الى استنتاجات وتعميمات امبريقية متناقضة وعقيمة. والنوع الثالث من الانتقادات نجده يركز على مسألة العلاقة بين الثقافة والمجال إلي تعتبر مسألة إيديولوجية ... كل هذه الانتقادات نجدها بالأساس موجهة إلى وورت من طرف امانويل كاستيلز الذي خصص فصل من كتابه " المسألة الحضرية " أسماه "أسطورة الثقافة الحضرية "، لتفنيد مفهوم "الثقافة الحضرية " و مفهوم التحضر عند وورت، انطلاقا من نتائج أبحاث ميدانية تفند كلها – حسب كاستيلز – العديد من نتائج واستنتاجات ومفاهيم وورث وغيره من رواد مدرسة شيكاغو.